فتوح بلاد السند في عهد الأمويين

إعداد الدكتور

عبد العزيز بن عبد الله الـحُمَيدي

الأستاذ بجامعة أم القرى

والمدرس بالمسجد الحرام

ح عبد العزيز عبد الله الحميدي ، ١٤٣٧هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الحميدي ، عبد العزيز عبد الله
فتوح بلاد السند في عهد الأمويين . / عبدالعزيز
عبد الله الحميدي- مكة المكرمة ، ١٤٣٧هـ

٨٧ ص ؛ .. سم

ردمك ٣-٦-١١٤٦-٠٢-٦٠٣-٩٧٨
١- التاريخ الإسلامي ٢ - الفتوحات الإسلامية - الهند - تاريخ إسلامي
أ.العنوان
ديوي ٩٥٣,٠٧٩ ١٤٣٧/٥١٩٠

رقم الإيداع : ٥١٩٠ - ١٤٣٧
ردمك: ٣-٦-١١٤٦-٠٢-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٣٧هـ/٢٠١٦م



المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فهذا الكتاب موضوعه « فتوح السند في عهد الأمويين»[1] .

وليس المقصود بهذا التاريخ رصد كل ما دوَّنه المؤرخون من تاريخ جهاد المسلمين وفتوحاتهم، وإنما المقصود منه ما اشتمل عليه ذلك من المواقف التي من أبرزها نشر الإسلام.

وقد بيَّنتُ في هذا الكتاب وفيما سبقه من الكتب أن المقصود من الجهاد هو نشر الإسلام في تلك البلاد عن طريق الجهاد الدعوي.

والجهاد نوعان: جهاد دفاعي وهو الذي يكون عند هجوم الأعداء على بلاد الإسلام، وهو فرض عين على كل قادر، وجهاد دعوي، وهو الجهاد في بلاد الكفار من أجل تحرير الشعوب من

(١) السند هي دولة باكستان حاليا–معجم المصطلحات التاريخية/ لعبد العزيز آل سعد/ ص١٥٨ .

الحكومات الكافرة حتى يفهموا الإسلام ويدخلوا فيه، وهو فرض كفاية، وقد تبين لنا في كتاب «الخلفاء الراشدون» أن قادة المسلمين كانوا يدعون الكفار إلى الدخول في الإسلام قبل كل معركة .

ومن ذلك ماقاله سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لقائد الفرس رستم : إني أدعوك إلى ماهو خير لنا ولك، العافية أن تقبل مادعاك الله إليه، ونرجع إلى أرضنا وترجع إلى أرضك، وماقاله رستم لزهرة بن الحوية لما دعاه إلى الإسلام: أرأيت إن رضيت بهذا الأمر ومعي قومي كيف يكون أمركم أترجعون؟ قال: إي والله ثم لانقرب بلادكم أبدًا إلا في تجارة أو حاجة، وسيتبين لنا مثل ذلك في هذا الكتاب.

نبذة عما سبق من الأحداث

لقد كانت رغبة المسلمين في فتح بلاد السند منذ عهد عمر رضي الله عنه ولكن حال دون ذلك انشغال المسلمين بجهاد الدولتين العظميين آنذاك دولة فارس والروم،إلى جانب قلة الموارد وكثرة عصابات اللصوص في تلك البلاد.

ففي عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بدأ الجهاد في السند والهند، ومن أخبار ذلك ماذكره البلاذري من أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولى على عمان والبحرين عثمان بن أبي العاص الثقفي في السنة الخامسة عشرة للهجرة، وأنه مضى إلى عمان ووجه أخاه الحكم إلى البحرين[1]،وذكر أن عثمان بن أبي العاص قاد حملة بحرية إلى «تانه»،ووجه حملة أخرى بحرية إلى «بروص»[2] بقيادة أخيه الحكم، وحملة بحرية ثالثة إلى «خور الديبل» [3]وذكر أنه لقي العدو فظفر،

---

(١) البحرين في ذلك الزمن هي الأحساء وما حولها من شرق الجزيرة العربية .

(٢) الخور هو مصب الماء في البحر، والديبل هي مدينة كراتشي حاليا- أطلس تاريخ الدولة الأموية لسامي مغلوث / ١٦٩ .

(٣) ذكر الدكتور عبد الله الطرازي أن تانه يطلق عليها « تهانه » وأنها مدينة هندية قديمة على البحر في شمال مدينة بومباي الحالية، وذكر أن بروص يطلق عليها « بهروج » وأنها على ساحل الهند أيضًا، - موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ١٣١-.

وأنه كتب إلى أمير المؤمنين عمر يعلمه ذلك، فكتب إليه: ياأخا ثقيف حملت دودا على عود، وإني أحلف بالله لو أصيبوا لأخذت من قومك مثلهم[1].

وهكذا غضب أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه على عثمان بن أبي العاص الثقفي لكونه أوّلاً غزا بلاد السند والهند بغير إذنه، ولكونه ثانيا لايرى الوقت مناسبا لهذا الغزو حيث إن المسلمين لم يصلوا إلى تلك البلاد عن طريق البر، فهو يخشى على المسلمين أن يُقتطعوا ويهلكوا في البحر.

ولكن لما وصل الفتح الإسلامي إلى مشارف تلك البلاد أذن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بغزوها، وذلك في سنة ثلاث وعشرين للهجرة، وفي ذلك يقول الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري فيما يرويه عن شيوخه.

قالوا: وقصد الحكَم بن عمرو التغلَبيّ لمُكْران[2] ، حتى انتهى

---

(١) فتوح البلدان / ٦٠٧.

(٢) تقع حاليا بين إيران وباكستان وتسمى بلوشستان – معجم البلدان/ لياقوت الحموي ٥/ ٢٠٩.

إليها، ولحق به شهاب بن المخارق بن شهاب، فانضم إليه، وأمدّه سهيل بن عديّ، وعبد الله بن عبد الله بن عتبان بأنفسهما، فانتهوا إلى دُوَين النهر،وقد انفضّ أهل مكران إليه حتى نزلوا على شاطئه، فعسكروا، وعبر إليهم راسل ملكُهم ملك السند[1]، فازدلف بهم مستقبل المسلمين. فالتقوا فاقتتلوا بمكان من مكران من النهر على أيام، بعدما كان قد انتهى إليه أوائلهم، وعسكروا به ليلحق بهم أخراهم،فهزمهم الله وانهزم راسل وسُلِب،وأباح المسلمون عسكره، وقُتلوا في المعركة مقتلة عظيمة،وأتبعوهم يقتلونهم أيامًا، حتى انتهوا إلى النهر. ثم رجعوا فأقاموا بمكران.وكتب الحكم إلى عمر بالفتح،وبعث بالأخماس مع صحار العبدي، واستأمره في الفيلة، فقدم صحار على عمر بالفتح والمغانم، فسأله عمر عن مكران – وكان لايأتيه أحد إلا سأله عن الوجه الذي يجيء منه – فقال: ياأمير

---

(١) ذكر الدكتور عبد الله الطرازي أن الطبري أخطأ في جعل « راسل » ملك السند، وذكر أنه حاكم ولاية سندية وأنه يطلق عليه نائب الملك، وأن ملك السند هو « جج » الذي تولى الملك من السنة الأولى للهجرة حتى سنة أربعين – موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية لبلاد السند والبنجاب ١/ ١٣٤.

المؤمنين،أرض سهلها جَبَل، وماؤها وشَل[1]،وتمرها دَقَل[2]، وعدوّها بطل، وخيرها قليل، وشرّها طويل، والكثير بها قليل، والقليل بها ضائع، وماوراءها شرّ منها. فقال عمر: أسَجّاعٌ أنت أم مخبر؟ قال: لا بل مخبر، قال: لا، والله لايغزوها جيش لي ما أُطِعْتُ، وكتب إلى الحكم بن عمرو وإلى سهيل ألا يجوزَن مكران أحد من جنودكما، واقتصرا على مادون النهر،وأمره ببيع الفيلة بأرض الإسلام، وقسم أثمانها على من أفاءها الله عليه.

وقال الحكم بن عمرو في ذلك:

لــقد شبع الأرَاملُ غــير فخرٍ بفيءٍ جـــاءَهُمْ مـــن مُكُّرانِ

أتـــاهـــم بعد مَسغَبَةٍ و جهدٍ وقــد صفر الشتاءُ من الدُّخان

فـــإني لايـذُمُّ الجيشُ فِـعـلي ولاسَـيْفي يُـذَمُّ ولاسـنانـي[3][4]

فلما ولي عثمان بن عفان ﷺ وولَّى عبد الله بن عامر بن كريز على

---

(١) الوشل الماء القليل.

(٢) الدقل أردأ التمر.

(٣) في رواية ابن كثير ولا لساني وهو الظاهر لأنَّ السيف هو السنان – البداية ٧/ ١٣٦.

(٤) تاريخ الطبري ٤/ ١٨١.

العراق كتب إليه يأمره أن يوجه إلى ثغر الهند من يعلم علمه وينصرف إليه يخبره، فوجه حكيم بن جبلة العبدي، فلما رجع أوفده إلى عثمان فسأله عن حال البلاد فقال: ياأمير المؤمنين قد عرفتها وتَنَحَّرتُها، فقال: فصفها لي،قال:ماؤها وشَل، وثمرها دَقَل، ولِصُّها بطل، إن قل الجيش فيها ضاعوا، وإن كثروا جاعوا، فقال له عثمان: أخابر أم ساجع؟ فلم يُغزها أحدا[١].

يعني هل أنت قصدت السجع في الكلام أم أنك تريد معنى ماتقول، ولماتبين له أنه يخبره عن حقيقة مارأى عزم على عدم غزو تلك البلاد، وقد تقدم كلام صحار العبدي في وصف تلك البلاد، وهو يشبه كلام حكيم العبدي وكونهما قد اتفقا في الوصف دليل على الخبرة الدقيقة.

ثم كانت محاولة في عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه حيث توجه الحارث بن مرة العبدي في آخر سنة ثمان وثلاثين للهجرة ومعه ألف مقاتل، وقد واجه عشرين ألفا من أهل القيقان[٢] في معركة

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري / ٦٠٧.

(٢) القيقان تقع في باكستان شمال كراتشي وتسمى حاليا قلات- العلاقة السياسية والثقافية بين الهند والخلافة العباسية / ٣٤ .

دامية انتصر فيها المسلمون وأسروا آلافًا من الأعداء .

وهكذا رأينا ماقام به هذا الجيش من أعمال بطولية، حيث ثبتوا بشجاعة نادرة أمام جيش يبلغ ضِعفهم عشرين مرة ومع ذلك لم يفروا وواصلوا القتال حتى نصرهم الله تعالى على عدوهم وظفروا بذلك العدد الكبير من الأسرى.

وهذا مثل يضاف إلى بطولات المسلمين العظيمة في الثبات واحتمال الشدائد.

ولكن هذا القائد البطل قد استشهد هو وعدد من جيشه في معركة أخرى لقلة جيشه أمام جيش الأعداء وذلك في عام اثنين وأربعين[1] .

وهذه المعارك قد ذُكرتْ باختصار ولم يُذكر فيها أن المسلمين قد تقدَّموا بدعوة الكفار إلى الإسلام قبل القتال، والدعوة إلى الإسلام قبل القتال أمرٌ قد تواتر عن المسلمين في كل معاركهم مع الكفار.



(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب لعبد الله الطرازي ١/ ١٣٥ – ١٣٦ فتوح البلدان / ٦٠٧-٦٠٨.

الجهاد في السند في عهد معاوية رضي الله عنه وابنه يزيد

كانت في هذا العهد محاولات أخرى لفتح بلاد السند وجرت فيها معارك بين المسلمين والكفار وقد تولى القيادة والإمارة على مافتح من بلاد السند كل من:

راشد بن عمرو الجُدَيدي سنة ٤٢هـ.

عبد الله بن سوَّار العبدي سنة ٤٣هـ.

المهلَّب بن أبي صفرة سنة ٤٤هـ.

عبد الله بن سوَّار العبدي مرة أخرى سنة ٤٥هـ.

سنان بن سلمة بن المحبَّق سنة ٤٨هـ.

راشد بن عمرو الجديدي مرة أخرى سنة ٤٨هـ.

سنان بن سلمة بن المحبق مرة أخرى سنة ٥٠هـ.

عباد بن زياد بن أبيه سنة ٥٣هـ.

المنذر بن الجارود سنة ٦١هـ.

حرِّي بن حرِّي الباهلي سنة ٦٢هـ.

وكان النصر في أكثر المواجهات الحربية حليف المسلمين، كما أنهم أصيبوا في بعضها[(١)].

ولقد سطر التاريخ مواقف عالية لبعض هؤلاء القادة،من ذلك ماذكره البلاذري عن عبد الله بن سوار العبدي أنه كان سخيا، لم يوقِد أحد نارًا غير ناره في عسكره،فرأى ذات ليلة نارًا فقال:ماهذه؟ فقالوا: امرأة نفساء يُعمل لها خبيص، فأمر أن يُطعم الناس الخبيص ثلاثا[(٢)].

ومن ذلك ماذكره خليفة بن خياط عن سنان بن سلمة بن المحبق قال: فحدثنا أبو اليمان النبال قال: غزونا مع سنان «القيقان» فجاءنا قوم كثير من العدو فقال سنان: أبشروا فأنتم بين خصلتين: الجنة والغنيمة، ثم أخذ سبعة أحجار وواقف القوم، قال: إذا رأيتموني قد حملت فاحملوا، فلما صارت الشمس في كبد السماء رمى بحجر في وجوه القوم وكبر، ثم رمى بها حجرا حجرا حتى بقي

---

(١) انظر تاريخ خَلِيفة بن خياط / ٢٠٥ – ٢١٣. فتوح البلدان للبلاذري / ٦٠٨ – ٦١١. شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ١/ ٥٣.

(٢) فتوح البلدان / ٦٠٨.

السابع، فلما زالت الشمس عند كبد السماء رمي بالسابع ثم قال: حم لاينصرون، وكبَّر وحمل وحملنا معه فمنحونا أكتافهم فقتلناهم، وسرنا أربعة فراسخ فأتينا قوما متحصنين في قلعة فقالوا: والله ماأنتم قتلتمونا ولاقتلَنا إلا رجال مانراهم معكم الآن على خيل بُلق، عليهم عمائم بيض، فقلنا: ذلك نصر الله، فرجعنا والله ماأصيب منا إلا رجل واحد فقلنا لسنان: واقفت القوم حتى إذا زالت الشمس واقعتهم؟ قال: كذلك كان يصنع رسول الله ﷺ[1].

وكون هذا القائد يتذكر هذه السنة النبوية ويطبقها دليل على علمه وصلاحه، وهي سنة اختيارية يقدَّم العمل بها إذا لم تقتض مصلحة القتال غير ذلك.

وموضوع رمي الأحجار لعله أراد بها وسيلة انضباط للجيش حتى لايقدموا على القتال حتى يرمي الحجر السابع، والمقصود هو التكبير ولكن لعل بعض أفراد الجيش لايسمعون التكبير بينما يرون رمي الأحجار.

---

(١) تاريخ خَلِيفة بن خياط / ٢١٢- ٢١٣.

وكون هذا الجيش نُصر بالملائكة عليهم السلام دليل على صلاح القائد والجنود وأنهم قد بذلوا كل طاقتهم في الاستعداد للمعركة والقتال، ولكن الأعداء كانوا فوق إمكاناتهم فنصرهم الله تعالى بجنود من عنده، والملائكة في القتال يقدر الله تعالى أن الكفار يرونهم ليصابوا بالرعب والفشل بينما لايراهم المؤمنون لكي لايتكلوا عليهم.



الجهاد في السند في عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد

نظرا لما حدث في البلاد الإسلامية من الاضطرابات بعد وفاة معاوية رضي الله عنه فإن الفتوحات الإسلامية قد توقفت في بلاد السند، وحينما استقرت أوضاع بلاد الإسلام في عهد عبد الملك بن مروان بدأ النشاط الجهادي في هذا الإقليم حينما تولى الحجاج بن يوسف إمرة العراق والمشرق.

ولاية سعيد بن أسلم الكلابي على السند:

ولَّى الحجاج بن يوسف سعيد بن أسلم بن زرعة الكلابي على إقليم مكران، وكان الوضع فيها مضطربا حيث كان يسيطر عليها طائفة من العرب الذين تمردوا على الدولة الإسلامية وانضموا إلى «داهر» ملك السند وهم العلافيون، وكان يتزعمهم رجلان منهم هما معاوية ومحمد ابنا الحارث العلافي، وهم ينتسبون إلى علاف وهو ربان بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة، وقد استطاع سعيد ابن أسلم أن يسيطر على البلاد، إلا أن العلافيين خرجوا عليه وقتلوه واستطاع محمد ومعاوية العلافيان أن يسيطرا على الحكم في البلاد وذلك في عام ثمانية وسبعين للهجرة [1].

---

(١) فتوح البلدان / ٦١١،الكامل في التاريخ ٤/ ٣٦تاريخ خَلِيفة بن خياط / ٢٩٦،وانظر موسوعة التاريخ الإسلامي للطرازي ١/ ١٥٦.

ولاية مجّاعة بن سعر التميمي:

ولَّى الحجاج بن يوسف مجاعة بن سعر التميمي على إقليم مكران عام تسعة وسبعين للهجرة ، وأسند إليه مهمة القضاء على العلافيين وتثبيت حكم الإسلام في ذلك البلد واستئناف الجهاد لفتح السند، وبعث معه جيشا قويًّا، ولما أن علم العلافيون بقدومه تركوا البلاد وهربوا إلى داخل بلاد السند تحت حماية «داهر» ملك السند، ولما وصل مجاعة إلى مكران وفرغ من أمور توطيد الأمن بها توجه إلى «قندابيل» ففتح نواحي منها، ولكنه مالبث أن توفي بعد عام من وصوله إلى بلاد السند[1].

ولاية محمد بن هارون النمري على مكران:

بعد وفاة مجاعة بن سعر ولَّى الحجاج بن يوسف على مكران محمد ابن هارون بن ذراع النمري، وذلك في عام ثمانين للهجرة.

وقد حدث في ولايته أن أهدى ملك جزيرة الياقوت[2] إلى

(١) فتوح البلدان / ٦١١، تاريخ خَلِيفة بن خياط / ٢٧٨، وانظر موسوعة التاريخ الإسلامي ١ / ١٥٨.

(٢) وتسمى جزيرة سرنديب وهي سيلان التي أصبحت تسمى سيرلانكا، وتقع جنوب الهند.

الحجاج سفينة تحمل مجموعة من النساء المسلمات اللاتي وُلدن في تلك الجزيرة ومات آباؤهن وكانوا تجارا، فأراد بذلك التقرب إلى رجال الدولة الإسلامية، فعرض لتلك السفينة جماعة من اللصوص في بوارج قرب مدينة الديبل، فأخذوا السفينة بما فيها، فنادت امرأة منهن وكانت من بني يربوع: ياحجاج، وبلغ الحجاج ذلك فقال: يالبيك، فأرسل إلى ملك السند «داهر» يسأله تخلية النسوة، فقال: إنما أخذهن لصوص لا أقدر عليهم.

فبعث الحجاج جيشا بقيادة عبيد الله بن نبهان السلمي لإنقاذ تلك النساء، ولكن هذا الجيش هزم وقتل قائده.

ثم بعث الحجاج جيشًا آخر بقيادة بُدَيل بن طَهْفة البجلي وكان شابًّا شجاعًا فدارت معركة دامية من الصباح إلى المساء وكان فرس بديل يهيج من هيبة الفيلة فربط عينيه وقاتل بشجاعة نادرة واستطاع بمفرده أن يقتل نحو ثمانين رجلا من العدو حتى استشهد وانهزم جيشه ووقع بقيتهم في الأسر حيث ضمَّهم ملك السند إلى سجناء الدَّيبل[1].

---

(١) فتوح البلدان / ٦١١ – ٦١٢، موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب للطرازي ١/ ١٦٢-١٦٣.

حملة محمد بن القاسم وفتح السند

لما بلغ الحجاج بن يوسف خبر أسر المسلمين في السند ونكبة الجيشين اللذين بعثهما استشاط غضبًا وحزن على مصير هذين الجيشين فأقسم على غزو السند بحملة كبيرة وكتب إلى الوليد بن عبد الملك يخبره بالأحداث المؤلمة في بلاد السند ويستأذنه في بعث جيش كبير لفتح السند وتخليص السجناء من المسلمين والمسلمات فوافق الوليد بعد تردد.

وجهز الحجاج جيشًا كبيرًا في عام تسعة وثمانين للهجرة، صرف عليه أموالاً عظيمة وأسند قيادته لمحمد بن القاسم الثقفي[(١)]، وكان الحجاج قد عرف فيه الجد والشجاعة وحسن الإدارة،ولقد وُفِّق إلى حد كبير في إدارة ذلك الجيش ثم في إدارة شئون البلاد بعد فتحها كما سيتبين لنا من عرض فتوحاته وسيرة عمله الإداري.

وسار محمد بن القاسم من العراق في ستة آلاف بكامل تجهيزهم

---

(١) هو محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل الثَّقَفِيّ، يجتمع هو والحجاج في الحكم – الكامل في التاريخ ٤/ ١١١.

وقد أعد الحجاج له مددًا من شيراز فسار حتى وصل شيراز وانضم إليه ستة آلاف آخرون، فأرسل المنجنيقات والأسلحة الأخرى الثقيلة بحرًا مع بعض الجيش إلى ميناء الديبل بقيادة خريم بن عمرو وابن المغيرة وأمرهما أن يسبقاه إلى الديبل وسار هو عن طريق مكران[(١)].

وهكذا رأينا كيف تجهز هذا الجيش بالأسلحة الثقيلة كالمنجنيقات التي أصبحت فيما بعد تسمى المدافع، وهذا دليل على تقدم المسلمين في الاستعداد الحربي، وسرعتهم في الاستفادة مما وجدوه من ذلك عند الأمم الأخرى، مع ماأضافوا إلى ذلك من ابتكارات جديدة.

هذا ولما وصل محمد بن القاسم إلى مكران انضم إليه واليها محمد ابن هارون النمري مع جيشه المكون من أربعة آلاف حيث أصبح جيش ابن القاسم ستة عشر ألفًا.

بعد ذلك قام ابن القاسم بفتح بعض المدن في أول السند حيث

---

(١) فتوح البلدان / ١٦٢، الكامل في التاريخ ٤/ ١١١، موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب١/ ١٦٤-١٦٧.

فتح قَنْزيور وأرمابيل تمهيدًا للهجوم على الدَّيبل التي تعدُّ من أكبر مدن السند وميناء البلاد، ويرجِّح بعض الباحثين أنها هي مدينة كراتشي الحالية.

فتح مدينة الديبل :

سار محمد بن القاسم بجيشه حتى وصل إلى الديبل وذلك في يوم الجمعة من شهر محرم عام ثلاثة وتسعين للهجرة.

ووصلت في الوقت نفسه المراكب البحرية التي كانت تحمل بعض الجنود والأسلحة الثقيلة، فأمر بحفر خندق حول الجيش وقام بتنظيم أموره حيث أنزل الناس على راياتهم، وَوُضِعت المجانيق الثلاثة التي تَزَوَّد الجيش بها، وأهمها منجنيق يسمى«العروس» يقوم على القذف به خمسمائة رجل، فحاصر المسلمون مدينة الديبل وجرت بينهم وبين أعدائهم مناوشات حربية.

ولما بدأ المسلمون بالهجوم بالمنجنيق على الحصن خرج منه رجل وطلب الأمان، فأعطاه ابن القاسم الأمان، فذكر لهم اعتقادًا سائدًا عندهم وهو أن بلادهم ستُفتَح على يد جنود الإسلام، وأن الأمان من

ذلك بقاء العَلَم المثبت فوق المعبد وكان معبدهم عظيم الارتفاع وفوقه قبة عليها علم كبير يتدلَّى من الجهات الأربع.

فلما سمع ابن القاسم ذلك الكلام قرر الاستفادة من هذا الاعتقاد فوجه المنجنيق الضخم نحو ذلك المعبد، وأمر قائد المنجنيق جَعُوبَةَ المسلمي بضرب ذلك العلَم ووعده بعشرة آلاف درهم جائزة له إذا أصاب الهدف، ولكن جعوبة اشترط أن يقطع من طول المنجنيق بقدر مترين، فقال محمد بن القاسم: إذا لم تنجح فقد ضاعت أهمية آلة المنجنيق، فقال جعوبة: إذا لم أُسقِط العلم ولم أكسر قبة المعبد فلتُقطَع يدي، وعندئذ وافق ابن القاسم على قطع المنجنيق بعد حصوله على الإذن من الحجاج، ثم صوَّب الرامي منجنيقه فانطلقت القذيفة الحجرية الأولى واسقطت العلم، ثم أطلق القذيفة الثانية فكسر بها قبة المعبد، فعند ذلك هاج الكفار وخرجوا فناهضهم المسلمون حتى هزموهم وردُّوهم.

وأمر ابن القاسم بالسلالم فوضعت وصعد عليها الرجال ففتحت عنوة وهرب عامل داهر عنها،واختط محمد بن القاسم للمسلمين بها

بيوتًا وبنى فيها مسجدًا وأنزلها أربعة آلاف من المسلمين[1].

وهكذا تم فتح حصن من أهم حصون الكفار في ذلك البلد، وجَرَى في أثناء ذلك أمور تستحق الوقوف عندها، منها التنويه بخبرة المسلمين الحربية حيث كان جعوبة المسلمي صاحب المنجنيق واثقًا من إصابته الهدف إلى الحد الذي غامر فيه على ذلك بقطع يده، وقبل ذلك دقة خبرته بآلته حيث اشترط قطع مترين من طول المنجنيق ليتكفل للقائد بإصابة الهدف.

فلله درُّهم ما أسرع تفاعلهم مع مكتشفات عصرهم !

وما أبرعهم في الاستفادة من قدراتهم في الوصول إلى معالي الأمور !!

لقد آمنوا بالإسلام حقًّا وصدقا ففجَّر هذا الدين طاقاتهم ووجههم نحو العلو في الأرض على قواعد الصدق والعدل، وكان لابد للوصول إلى هذا الهدف العالي من اكتساب جميع الخبرات

---

(١) فتوح البلدان ٦١٣ – ٦١٤، الكامل في التاريخ ٤/ ١١١، موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ١٦٨-١٧١.

العسكرية والمدنية من حولهم ثم التفوق على غيرهم في ذلك، وكان لهم ماأرادوا فكانوا أبرع من الأعداء في استخدام الأسلحة التي توارثها الأعداء كابرًا عن كابر.

وهكذا تكون نهضة الأمم ورقيها نحو المعالي والتمكين في الأرض.

ومن الأمور التي تستحق الوقوف براعة القائد محمد بن القاسم في اغتنام الفرص المؤدية إلى النجاح، فما أن علم بعقيدة أولئك الكفار القائمة على اعتقاد حلول الهزيمة بهم مع زوال عَلَمهم الكبير حتى غيَّر خطته الحربية وبدأ بقصف ذلك العلَم والقبة التي تحمله ليهزمهم معنويًّا قبل أن يواجههم عسكريًّا.

وهكذا يجب على القادة أن يتلمسوا مواطن الضعف عند الأعداء ليوجهوا ضرباتهم من خلال جوانب الضعف، فيجتمع على الأعداء جانب الضعف الذي يهز معنوياتهم ويضعفها إلى جانب قوة المسلمين التي لايقف أمامها أحد في الغالب.

ولقد كانت هذه العقائد مصدر إزعاج وضعف للكفار أمام

المسلمين الأقوياء بعقيدتهم الصافية القوية، فاستفاد المسلمون من ذلك فوائد عظيمة كما سبق لنا في عرض مواقف المسلمين مع الفرس والروم.

وأخيرًا وصل محمد بن القاسم إلى السجن الكبير الذي كان ملك السند قد احتجز فيه جمعًا من المسلمين والمسلمات، بعضهم من التجار ونسائهم، وبعضهم من أسرى الحرب، ونساء فقدْنَ أولياءهن من التجار الذين هلكوا في تلك البلاد وماحولها، فأفرج عنهم وتركهم فترة للراحة، ثم أعادهم إلى وطنهم الإسلامي، وحقق ابن القاسم في ذلك إجابة الحجاج حينما قال: يالبيك، لنداء تلك المرأة المسلمة التي قالت من وراء القضبان: ياحجاج.

وهكذا كان المسلمون أعزَّةً باعتزازهم بدينهم، واهتمامهم بأمور إخوانهم المسلمين، فليس من شأن المؤمن الحق أن ينام قرير العين هادئ البال، وأن ينعم بالطيبات والأمن والراحة وإخوانه المسلمون يقتَّلون ويشرَّدون ويعذبون. وتُمْلأُ بهم السجون، وينالون فيها أنواع الإذلال والتعذيب.

ولقد كان الحجاج بن يوسف من قساة القلوب الذين اشتهروا بالظلم والجبروت، ومع ذلك جهز تلك الجيوش لإنقاذ أولئك المسلمين من أيدي أعدائهم، لأن المسلمين في ذلك الزمن لوعيهم الديني يدركون أن إذلال الكفار للمسلمين يعدُّ إهانة للإسلام نفسه، فالمسارعة لإنقاذ المسلمين تعدُّ إعزازًا للإسلام بالدرجة الأولى، ورحمة بالمسلمين بالدرجة الثانية.

هذا ولقد توَّج ابن القاسم أعماله في فتح مدينة الديبل بالعفو عن المشرف على السجن لَمَّا شهد السجناء المسلمون بأنه كان يعاملهم معاملة كريمة،فعفا عنه ابن القاسم من باب مبادلة الإحسان بالإحسان، على الرغم من أن أوامر الحجاج تنص على قتله هو وأمثاله، إضافة إلى أنه فوض إليه الإشراف على الأمور المالية في مدينة الديبل.

وكان من نتيجة هذه المعاملة الكريمة من ابن القاسم أن ذلك السجَّان الدَّيبلي أعلن إسلامه [1]،وهذا مثل من الأمثلة الكثيرة في

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ١٧١ – ١٧٢، فتوح البلدان ٦١٣ – ٦١٤.

تاريخ المسلمين الأوائل التي يكون فيها إسلام الكفار بسبب معاملة المسلمين الكريمة لهم.

وإن ماقام به ابن القاسم من تفويض الأمور المالية إلى ذلك الرجل يعدُّ لفتة إدارية عالية،تدلنا على ماكان يتمتع به ابن القاسم من خبرة دقيقة في معادن الرجال،فالرجل الذي كان يعامل أعداءه في الدين معاملة كريمة في السجن وهو قادر على ضد ذلك،ثم يسارع إلى اعتناق دين اعدائه لما أدرك أحقيته وسموه جدير بأن تُسند إليه مَهامُّ الأمور.

ووقفة أخيرة في هذه النقطه تدلنا على تمتع القادة المسلمين آنذاك بحرية التصرف، انطلاقا من مبدأ «يرى الشاهد مالايرى الغائب» فالحجاج قد أمر بقتل المقاتلين والمشرفين على سجن المسلمين، ولكن هذا السجان قد شفع له كريم معاملته للمسلمين في السجن، فالاجتهاد وارد في الحكم في القضايا من منطلق دراسة الواقع.

فتح مدينة النَّيرون[1] :

لما انتهى محمد بن القاسم من فتح مدينة الديبل اتجه إلى مدينة النيرون [حيدر أباد حاليًّا] ونزل في مواضع من ضواحيها ولم يكن نهر السند يمر به فضاق الجنود من العطش حتى أمطرت السماء وامتلأت الخزانات بالمياه وشرب جنود الإسلام وحمدوا الله تعالى.

وهكذا قيض الله جل وعلا ذلك المطر لإنقاذ المسلمين وتقوية قلوبهم حتى يواجهوا أعداءهم بقوة ونشاط، وهذا مثل من كون الله تعالى مع أوليائه بنصره ومعونته لما يريد بهم من إظهار دينه وإعلاء كلمته في الأرض.

ووصل ابن القاسم بجيشه تلك المدينة بينما وصلت المؤن الثقيلة التي بعث بها مع بعض الجنود على السفن في نهر ساكره.

وحاصر المسلمون تلك المدينة عدة أيام وكان واليها غائبًا، فلما قدم أبرز كتاب صلح بينه وبين الحجاج وفتح المدينة للمسلمين.

ثم حضر بهندركن والي المدينة إلى محمد بن القاسم ومعه الهدايا

---

(١) هي مدينة حيدر آباد حاليا مدينة في باكستان تبعد عن مدينة كراشي ١٥٠كم- موسوعة ألف مدينة إسلامية / للعفيفي ص ٢٠٨ .

والتحف فأكرمه ابن القاسم واتَّخذه مستشارًا وولَّى على مدينته واليًا مسلمًا[1].

وهكذا كان ابن القاسم يعامل المسالمين معاملة كريمة ويستفيد من خبرة من يظهر النصح للمسلمين مع عدم الاعتماد عليه في القرارات النهائية، وتلك منقبة من مناقبه العظيمة التي جعلته يفتح ذلك الإقليم الواسع في وقت قصير، مع ماقام به من ترسيخ أقدام المسلمين هناك وبث الإسلام بين أبناء البلاد.

فتح إقليم سيوستان[2]:

ثم اتجه ابن القاسم إلى إقليم سيوستان وبصحبته بهندركن الوالي النيروني وكان له أتباع بوذيون في ذلك الإقليم فاجتمعوا به وأخبروه بأنهم موافقون على ماجاء في رسالة الحجاج إليه من قوله «كل من

---

(١) الكامل في التاريخ ٤/١١١، موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/١٧٣.

(٢) يقع هذا الإقليم في وسط غرب باكستان على بعد ٣٠كم غرب مدينة حيدر باد- تاريخ المسلمين وحضارتهم في بلاد الهند والسند / ٧٤ لأبي النصر، وموسوعة ألف مدينة إسلامية / ٢٩٨ .

طلب الأمان له الأمان» ولكن حاكم ذلك الإقليم رفض الصلح وهو بَجْهرا بن جندر ابن عم الملك داهر ملك السند، فحاصرهم ابن القاسم وصوَّب المجانيق نحو مدينتهم لمدة أسبوع ليلاً ونهارًا حتى شعر السكان بالضيق والخوف فتوقفوا عن القتال، ولما علم الأمير بأن السكان قد يئسوا من المقاومة هرب في المساء من الباب الشمالي وعبر النهر متجهًا إلى منطقة البودهية.

وبعد هروب الحاكم دخل محمد بن القاسم مدينة سيوستان فاتحًا وأعلن أهلها البوذيون منهم الطاعة وعيَّن نوابًا من أماكن متعددة وجمع الغنائم ماعدا مايخص البوذيين الذين أعلنوا الطاعة.

ومما هو جدير بالذكر إسلام جماعة كبيرة من البوذيين على يد محمد بن القاسم من أهل جنه في سيوستان، وقصة إسلامهم مؤثرة حيث أرسلوا مندوبًا لهم إلى معسكر المسلمين لمعرفة أخبارهم،وحين وصل كان جنود الإسلام قد وقفوا في الصلاة في خشوع مهيب خلف إمامهم محمد بن القاسم فاندهش لمنظرهم، وأخبر قومه بذلك، فقالوا: إذا كان العرب هكذا يعبدون الرب ويطيعونه ولايتركون

صلاتهم حتى في أخطر المواقف وهم بهذا الشكل من الاجتماع فلايمكن لنا مقاومتهم وهذا دليل على صحة دينهم.

واختاروا وفدًا من زعمائهم أرسلوهم إلى ابن القاسم وعرضوا له طاعتهم وأُعجبوا بأخلاقه ومعاملته فأعلنوا إسلامهم، ثم عادوا لقومهم فدعوهم إلى الإسلام فأسلموا جميعًا [1].

وهكذا رأينا عظمة الصلاة وبركتها وتأثيرها القوي على مشاعر من يشاهد لأول مرة المصلين وهم يصلون، وخاصة إذا كانوا يصلون جماعة.

وإن من أهم عوامل التأثير في الصلاة ماتشتمل عليه من الخشوع القلبي القائم على حضور القلب مع الله تعالى، والذي يترتب عليه سكون الجوارح وخضوعها لله جل وعلا، مِنْ وَضْع اليد على اليد حال القيام والنظر الدائم إلى موضع السجود وعدم تحريك الأعضاء إلا بموجب حركات الصلاة.

وإن أبلغ مافي الصلاة من التأثير قيام الجماعة من المسلمين في صفوف منتظمة متساوية خلف إمام واحد، وتزيد عظمة هذه الجماعة

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ١٧٤ – ١٧٦.

ومنظرها المهيب حين يتضخم العدد فيصل إلى الألوف من المصلين كما هو الحال في تجمعات الجيوش وتجمعات المدن الكبيرة.

وإن ممايزيد في إعجاب الأعداء كما هو مذكور في الخبر كون المسلمين لايتنازلون عن صلاتهم الجماعية حتى في أحرج المواقف وهم واقفون أمام أعدائهم،وهذا يبين لنا حكمة من حِكَم شرعية صلاة الجماعة.

المعركة الفاصلة مع ملك السند:

استمر محمد بن القاسم يتقدم ويفتح المدن صلحا في غالب الأمر حتى وصل إلى جيش الملك داهر وكان بينهما نهر السند، فأرسل إليه ابن القاسم رسولا يسمى الشامي ومعه مترجم وهو قبلة بن مهترائج الذي كان مشرفًا على سجن الديبل وأسلم على يد محمد بن القاسم، فلما دخل على ملك السند لم يسجد له تعظيمًا حسب عادة أهل السند مع ملكهم، وكان الملك داهر يعرفه فغضب وقال: لو لم تكن رسولا لقتلتك، فقال هذا الديبلي: نعم إنني الآن مسلم ولايصح في الإسلام أن يسجد إنسان لإنسان وإنما السجود لله رب العالمين، وإن قتلتني فإن المسلمين ينتقمون لي.

ثم ذكر حديث رسول المسلمين الشامي للملك حيث ذكر له رسالة ابن القاسم إليه بتخييره بين أن يعبر النهر إلى المسلمين أو يتركهم يعبرون إليه بعد أن رفض الدخول في الإسلام ودَفْع الجزية[1].

وهكذا رأينا موقفًا عاليًا من ذلك الرجل الدَّيبلي الذي أسلم حديثًا حيث تفقه في الدين سريعًا فأدرك التقاليد الجاهلية التي تتعارض مع الإسلام وفهم توحيد الله سبحانه للعبادة والتعظيم فلم يسجد لذلك الملك كما يصنع قومه الكفار، ثم أظهر اعتزازه بانتمائه للمسلمين حيث أظهر التحدي لذلك الملك ببيان عزة المسلم وكرامته عند إخوانه حتى لو كان حديث عهد بالإسلام، هذه العزة التي من مظاهرها غضب المسلمين لإخوانهم وانتقامهم ممن اعتدى عليهم مهما كلفهم ذلك من أموال ومتاعب.

وهكذا كان المسلم آنذاك يظهر إسلامه بشخصية عالية وعزة متناهية حتى وهو بين أحضان الكفار وعند ملوكهم،وماذاك إلا لقوة

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ١٨٠، فتوح البلدان ٦١٤.

المسلمين وظهور دولتهم على دول الباطل وعدم خضوعهم لأعداء الإسلام.

ولقد كان لهذه الصور القوية التي أبرزت عظمة الإسلام في نفوس المسلمين وقوة تأثيره على سلوكهم الأثر البالغ في جذب الناس إلى اعتناق هذا الدين الحنيف لما يَشْعر به المنتمي إليه من عزة وحصانة في الدنيا ومآل سعيد خالد في الحياة الآخرة.

وقد استشار ملك السند وزيره سياكر فنصحه بالموافقة على عبور المسلمين مسوِّغًا ذلك بانقطاع المُؤن والإمدادات عن المسلمين إذا عبروا النهر فيسهل القضاء عليهم، وكان في جيش داهر قوم من العرب من العُلافيِّين بقيادة محمد العلافي، وهم عرب تمردوا على دولة الإسلام ولحقوا بملك السند فكانوا يحاربون معه المسلمين، فاستشار داهر محمد العلافي فأشار بعدم تمكين المسلمين من العبور وعلل ذلك بأنهم أشداء في الحرب وأن لهم هدفين في القتال إما النصر وإما الموت، وحيث إنهم لايفرون فمن الصعب على أعدائهم هزيمتهم، كما أشار بتسليط اللصوص عليهم لنهب الغلات والمواشي والعلف من كل

مكان قريب من المسلمين حتى ينتشر بينهم الجوع والمرض فيتفرقوا ويسهل عند ذلك قتالهم وهزيمتهم.

وقد تحيَّرَ الملك بين الرأيين فقرر أن يترك الخيار للمسلمين في ذلك، ووقف بجيشه على الشاطئ الشرقي للنهر، وقرر محمد بن القاسم عبور النهر، وفي هذا الوقت وصل إليه خطابان من الحجاج يأمره فيهما بالتجلد والشجاعة وسرعة العبور من موضع مناسب، ويطلب منه إرسال خريطة للنهر لدراستها وإبداء الرأي.

وفي الوقت نفسه استعد الملك داهر فوقف بجيشه على الشاطئ الشرقي من النهر وأمر بعض قواده بالمرابطة بالسفن في الجانب الذي يسهل منه العبور ليُلجئ المسلمين إلى العبور من المواضع الخطرة، وكان يريد القضاء عليهم وهم في حال العبور.

وقد توقف ابن القاسم عن العبور لمواجهة خطط ملك السند ولأن منطقة سيوسان انتقضت عليه فوجه أحد قادته بجيش لإعادة فتحها حتى يكون الطريق من خلف الجيش الإسلامي في أمان.

ونظرًا لتأخر ابن القاسم في العبور مايقرب من خمسين يومًا ولِمَا

قامت به العصابات من سحب المُؤَن والأعلاف والأغذية من حول المسلمين فقد أصيبت خيول المسلمين بالمرض.

وقد اغتنم داهر ذلك الوضع السيء بالنسبة للمسلمين فأرسل إلى ابن القاسم يعرض عليه تقديم مساعدة غدائية في مقابل أن ينسحب المسلمون إلى الخلف، ولكن ابن القاسم رفض ذلك بشدة وكرر قولته المشهورة بأنه لن يترك أرض السند قبل أن يرسل رأس داهر إلى الحجاج في العراق.

وهكذا كان قادة المسلمين وجنودهم يتمتعون بالصبر على الشدائد ومصابرة الأعداء حتى ينزل عليهم الفرج من الله تعالى، ولقد نال المسلمون بالصبر الطويل نتائج معارك طالت مدتها واكتنفتها الأهوال، وكان أبرز الفوارق بينهم وبين أعدائهم أنهم أكثر منهم صبرا على حر القتال واحتمال الشدائد.

وجاء الفرج من الله تعالى حيث علم الحجاج بن يوسف بما وصلت إليه حال الجيش هناك فأسرع بإرسال ألفين من الخيول العربية الأصيلة والمواد الغذائية والخلِّ المجفف في القطن المحلوج،

وذلك للطعام والدواء.

كما أن الحجاج قام برفع معنوية محمد بن القاسم حتى لايضعف أمام تلك الأهوال حيث عيَّنه واليا على بلاد السند كلها وفوض إليه الأمور ليتصرف كيف شاء، ولكنه في الوقت نفسه حذره من الصلح وشجعه على عبور النهر والقضاء على داهر مهما كلفه ذلك، وأشار عليه بأن يعبر النهر من منطقة «بت» حيث يقل العرض والماء ويسهل العبور، وذلك بعد دراسته لخارطة البلاد، ونصحه أيضًا ببناء جسر على الماء من القوارب لكسب الوقت في العبور ومجابهة الأخطار.

وهذا موقف يذكر للحجاج بن يوسف حيث كان وراء ذلك الانتصار الباهر في بلاد السند وفي غيرها من بلاد المشرق.

هذا وقد رتب محمد بن القاسم الخطط الحكيمة لعبور النهر حيث كان يدرك جيدًا أن خطة الملك داهر أن يقضي على جيشه أثناء العبور، فأرسل فرقة من ستمائة فارس بقيادة سليمان بن نبهان القرشي نحو الحدود الغربية لمدينة راور حتى يمنع الأمير جيسيه بن الملك داهر من التحرك وقت عبور الجيش، وأرسل فرقة من خمسمائة فارس لمراقبة طريق منطقة كنداره لمنع وصول الإمدادات لجيش داهر، وأمر

فرقة ثالثة بقيادة كبار التكاكرة من أهل المنطقة للوقوف في جزيرة بَتّ للدفاع[1]، وفرقة إلى جيبور قرب راور لمواجهة جيش داهر في خليج يقع بين راور وجيبور، وأمر بَهَنْدركن الحاكم النيروني الذي اتخذه مستشارًا له بجمع الغلة وتوفير العلف للجيش استعدادًا للعبور.

بعد هذا الاحتياط الكافي قرر المسير نحو الشاطئ ثم العبور وأرسل أمام الجيش فِرَقًا استطلاعية، ووصل بجيشه إلى الشاطئ بأمان فأمر بإحضار المراكب ليعمل منها جسرًا يتم العبور عليه وكان قد أمر بتعبئتها بالرمال والأحجار لتثبت في النهر ثم أمر بتسميرها بالألواح الخشبية حتى تم عمل الجسر، ثم أمر الفِرقَ الفدائية بالتوجه بسفنهم إلى جهات متعددة لحماية الجيش أثناء العبور، وزحف الجيش الإسلامي فوق المراكب ليلا بإتقان وسرعة وحذر حتى تم عبورهم إلى الشاطئ الشرقي.

كل ذلك والملك داهر يغط في نومه في عاصمته، وكان قد انشغل باللهو والصيد ولعب الشطرنج اعتمادًا على نجاح خططه التي دبَّرها لإبادة المسلمين أثناء محاولات العبور التي يبدو أنها كانت صعبة

---

(١) التكاكرة هم قادة في جيش السند من البراهمة ، وقد انضم عدد منهم إلى جيش محمد بن القاسم- تاريخ المسلمين وحضارتهم في بلاد الهند والسند/ ٢٤ لمحمد أبو النصر.

للغاية لولا عناية الله تعالى ثم التدابير المحكمة التي خطط لها ابن القاسم ثم نفذها بتوجيه من الحجاج بن يوسف.وما أن وصل المسلمون إلى الشاطئ الشرقي حتى بادروا بالهجوم ليلا على قوات الملك داهر المرابطة فانزعجوا وانهزموا،وهرب قواد الملك إلى العاصمة وأخبروا الملك داهرًا بالخبر فانزعج لذلك وكاد يفقد وعيه[1].

وهكذا نجحت خطط المسلمين بقيادة أميرهم الشاب محمد بن القاسم الثقفي لاعتمادهم قبل كل شيء على الله تعالى وشعورهم القوي بالمسؤولية المنوطة بهم وانصرافهم إلى الجد في كل أمورهم واغتنام كل الفرص المتاحة لهم، بينما فشلت خطط الملك داهر التي اعتمد فيها على مجرد الرأي والتدبير والخبرة الحربية، وقد حمله بُعده عن الله تعالى واعتماده الكامل على خططه.. حمله ذلك على الغرور والغفلة وإضاعة الفرص المناسبة حتى داهمه الجيش الإسلامي وهو في لهوه وغفلته.

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ١٨١ – ١٨٦، فتوح البلدان / ٦١٥، الكامل في التاريخ٤/ ١١١.

ولما علم ملك السند داهر بما حل بذلك الجيش بعث جيشًا آخر بقيادة محمد العلافي وهو الذي سبق أن ذكرنا أنه وجماعة معه من العرب المتمردين على دولة الإسلام، فبعثه ملك السند لخبرته بقتال العرب، ولكنه ماأن واجه جيش المسلمين حتى رموه بالسباب وعيروه بالخيانة حتى انهزم وتقهقر إلى الوراء.

فلما علم بذلك ملك السند أرسل جيشًا كبيرًا بقيادة ابنه الأمير جيسِيه فخرج بجيشه ومعه عدد من الفيلة المقاتلة، ووجه له ابن القاسم جيشًا بقيادة عبد الله بن علي الثقفي الذي حارب بشجاعة وقتل كثيرًا من جنود العدو وقام بهجوم خاطف على قلب الجيش السندي وحاصر القواد وقتل معظمهم، فهرب الأمير جيسِيه من المعركة وانتصر جيش الإسلام.

ولما علم الأمير «راسل البوذي» أحد كبار القادة والحاكم الجديد لمنطقة بَتّ أن الأمير جيسيه انهزم وفر هاربًا أدرك أن الغلبة للمسلمين، فأرسل مبعوثًا إلى محمد بن القاسم بأنه يريد المبايعة والانضمام إليه، وطلب منه أن يرسل جيشًا صغيرًا لأخذه أسيرًا إليه

في أثناء توجهه إلى الملك داهر حتى لايلومه قومه، فخرج راسل من المدينة وولَّى والده عليها وطلب منه أن يستسلم للمسلمين إن قدموا عليه، وأرسل محمد بن القاسم جيشًا من الفرسان وأسروا راسل فعاهد على الولاء والعمل تحت راية الإسلام.

وهكذا استسلم حاكم هذه الولاية وعاهد على العمل مع المسلمين كما فعل ذلك قبله حاكم الولاية السابق وحكام آخرون، وهي ظاهرة غريبة لم تقع بهذه الصورة في سائر الفتوحات العالمية، وهذا راجع بالدرجة الأولى إلى ماكان يتمتع به حكام المسلمين وأمراؤهم في الغالب من العدالة والمواساة لمن تحت أيديهم من المسؤولين والرعية، وكان ابن القاسم مثالا لهذه الأخلاق الكريمة فاجتذب بسمو أخلاقه والتزامه بآداب الإسلام أولئك الأمراء، واستفاد من خبرتهم في بلادهم كثيرًا حيث ضمهم إلى جيشه وجعلهم مستشارين.

وأمر آخر لعله كان دافعًا لهذا التوجه بهذه الصورة الظاهرة من أولئك الأمراء، وهو كونهم جميعًا يعتنقون الديانة البوذية بينما كان

داهر برهمي المذهب، وكان البراهمة يعيشون في كبر وخيلاء ويحتقرون الناس من حولهم ويعتقدون أنهم آلهة وأن الناس عبيد لهم، فولَّد ذلك في نفوس الناس كراهية لهم وحقدًا عليهم، فلما سنحت الفرصة للأمراء البوذيين في التخلص منهم اغتنموا ذلك ورأوا في المسلمين خير بديل عنهم لما رأوا فيهم السماحة والعدل والتواضع على خلاف ما ألفوه من البراهمة.

واغتنم ابن القاسم هذه الفرصة فمنح هؤلاء ثقة كبيرة وأكرمهم وأشعرهم بوجودهم كأمراء لهم مكانتهم بين قومهم فأفاد الجهاد الإسلامي فائدة كبرى بكسب رأي هؤلاء وخبرتهم ومساندتهم جيش المسلمين بالجنود والعتاد الحربي.

بعد ذلك استعد ابن القاسم لقتال الملك داهر، فانتقل إلى موضع يقال له نارائي ومعه الأمير راسل والأمير موكه،وكان الملك داهر يعسكر في موضع قريب منه يقال له قاجيجاق وكانت بينهما بحيرة، وقد أشار راسل بضرورة عبور البحيرة وأحضر القوارب، ونقل عليها الجنود في ظلام الليل إلى داخل خليج هناك، ثم تقدموا قليلا

نحو مدينة جيبور حتى وصلوا عند نهر دوهاواه الذي تقع عليه قرى كثيرة، فعسكروا هناك ليسهل القيام بالهجوم على الملك داهر من الأمام والخلف.

وعلم داهر بوصول المسلمين إلى جيبور فترك أسرته في قلعة راور وتحرك بجيشه ووقف على بعد فرسخ من المسلمين،وتقدم محمد ابن القاسم ووقف على بعد نصف فرسخ، واستعد الجيشان للحرب المصيرية.

وبدأت الحرب بتقابل فرق من الجيشين لمدة أسبوع، بدأت بعدها الحرب الشاملة التي انتهت بعد ثلاثة أيام بانتصار المسلمين وكان النصر في جميع تلك اللقاءات لجيش المسلمين.

ولما رأى الملك داهر تلك النتائج السيئة لجيوشه قرر أن يخوض المعركة النهائية بنفسه، فجمع قواته كلها التي بلغت مائة وعشرين ألفا يقودها خمسة آلاف فارس من أبناء الأمراء والقواد المشهورين، ومعهم عشرة آلاف فارس بكامل تجهيزهم وثلاثون ألفًا من المشاة المجهزين بالدروع والسهام والرماح إلى جانب عشرات الألوف من

أفراد القبائل المختلفة، يتقدمهم مائة من الفيلة الرهيبة التي كانت أخطر مايواجهه المسلمون من سلاح الأعداء.

ونظَّم ابن القاسم جيشه فجعل على المقدمة عطاء بن مالك القيسي مع جيشه من الفرسان، وجعل جهم بن زحر البجعي مع جيشه من الفرسان على الميمنة، وجعل ذكوان بن علوان البكري على الميسرة ونباتة بن حنظلة الكلابي في المؤخرة، وبقي هو في القلب ومعه محرز بن ثابت وبعض القواد من العرب والسند، وأعلن في الجيش بأنه إذا قُتل في الميدان فالقيادة العليا لمحرز بن ثابت.

وبدأت المعركة فتقدم محرز بن ثابت بفرقته من القلب فاستشهد وتقهقرت فرقته،وكذلك تقدمت فرقتان فانهزمتا بسبب الهجوم الشرس من الفيلة [1].

هذا وقبل الحديث عن المعركة فإنه لابد من الإشادة بموقف محرز بن ثابت الذي ولاه محمد بن القاسم قيادة الجيش من بعده فيما لو استشهد.

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ١٨٧ – ١٩٠، فتوح البلدان / ٦١٥.

وإذا نظرنا إلى الموضوع من الناحية الدنيوية التي يتسابق الناس فيها على التسلق نحو درجات المجد والشهرة ومايتبع ذلك من الحصول على الأموال والتمتع بطيبات الحياة.. إذا نظرنا إلى ذلك فإن الحال تقتضي أن يحاول هذا القائد البديل أن يحمي نفسه من بأس الأعداء بمجموعة من الحراس حتى يُبقي على حياته ليتبوأ ذلك المنصب المرتقب، ولكن المسلمين الصادقين من أمثال محرز بن ثابت تهون عليهم أنفسهم وحياتهم الدنيا بما فيها من مجد ورفعة في سبيل إعزاز الدين وإعلاء كلمة الله تعالى، فلذلك كان أول مغوار فدى أمته بنفسه حتى خرَّ صريعا تحت أقدام الفيلة وخيول الأعداء، فلله دَرُّهم ماأكبر همتهم وما أبعد غايتهم ! ولما رأى محمد بن القاسم ما أصاب بعض المسلمين من الانهزام والتقهقر أمام جيش الفيلة ناداهم بأعلى صوته وحثهم على الصبر والجهاد فقاموا بحملة قوية على الجيش السندي وقتلوا تسعة من الفيلة فتشجعوا بذلك، وأخذ الكفار يتقهقرون إلى الخلف حتى توقف القتال عند المساء.

وانتهى اليوم الأول من هذه المعركة الكبرى، وقد أبلى المسلمون بلاء حسنا وأخذوا فيه خبرة كافية عن سلاح الأعداء وقوتهم

وتخطيطهم الحربي.

ولقد كان لابن القاسم موقف يذكر حيث كان رابط الجأش ثابت الجنان على الرغم من صغر سنه، فلم يتزعزع حينما رأى المسلمين يتفرقون ويتضعضعون أمام الفيلة، بل ثبت وناداهم بقوة ليجتمعوا وليبذلوا طاقتهم في قتال عدوهم.

وإنَّ توافر هذه المقدرة الفائقة عند ابن القاسم.. من الشجاعة الفائقة ودقة التخطيط وحسن التدبير والثبات عند المواقف الصعبة مع أنه كان في سن الشباب دليل واضح على تفوق المسلمين في مجال التربية، وأنهم كانوا يهتمون بتأهيل أبنائهم منذ الصغر للمجالات التي ينَشُدون تفوقهم فيها، إذ أن مثل هذه المقدرة لا تتوافر في سن مبكرة بغير الإعداد التربوي الجاد المنظم.

ولقد كان جديرًا بقول الشاعر يزيد بن الحكم الثقفي فيه:

إن السماحة والمروءة والندى ... لمحمد بن القاسم بن محمد

ساس الجيوش لسبع عشرة حجة[1] ياقُرْبَ ذلك سُؤددًا من مولد

كان هذا اليوم الأول من المعركة يوافق يوم الإربعاء التاسع من رمضان المبارك من عام ثلاثة وتسعين للهجرة كما ذكر المؤرخون.

وفي يوم الخميس الموافق للعاشر من رمضان استُؤنفت المعركة بين الطرفين، وقد حصل تغيير لبعض مواقع القادة من الجانبين حسبما تقتضيه ظروف المعركة.

ولقد كان مما خرج به الأعداء في اليوم الأول أنهم أدركوا خطورة سلاح الفيلة على المسلمين فعزموا على تركيز هجومهم بالفيلة في اليوم الثاني، كما أن المسلمين أدركوا ذلك فعزموا على توجيه اهتمامهم في القضاء على تلك الفيلة، وكان مع المسلمين ثلاثة منجنيقات يحركها ويرمي بها تسعمائة من الرماة، فقسم ابن القاسم هؤلاء إلى ثلاث فرق وأمرهم بأن يشعلوا النيران وأن يوجهوا قذائفهم المشتعلة بالنفط نحو الفيلة والمجموعات التي تقودها.

---

(١) أي لسبع عشرة سنة، وذلك محمول على ابتداء أمر إمارته وقيادته حيث تولى إمارة خراسان عام ثلاثة وثمانين للهجرة، أما عمره حينما توجه لفتح السند فقد كان سبعًا وعشرين سنة – العقد الثمين في فتوح الهند للمباركفوري- (ص١٨٥) .

وبدأ المسلمون يومهم ذلك بعد صلاة الفجر بسماع خطبة حماسية ألقاها قائد المسلمين الشاب، حثهم فيها على النصر والثبات ومواصلة القتال مهما كانت الظروف، وذكَّرهم بالله تعالى وماأعده لعباده المؤمنين الصابرين.

وبدأت المعركة بهجوم فرقة من مائتي فارس من المسلمين بقيادة نبهان أبو فقيه القشيري،وتقدم لها فرقة من السند فانهزموا أمام المسلمين وقُتل كثير منهم،وكانت بداية طيبة رفعت معنوية المسلمين.

وتلا ذلك اشتباك بين فرق من الجيشين، وبدأ الرماة بالقذف بالسهام المشتعلة بالنفط من المجانيق على قلب الجيش السندي الذي تصدَّرتْه الفيلة، فحصل للسند فزع واضطراب، وتفرَّقَ جمعُهم قليلا حتى تمكن المسلمون من الدخول في جيشهم.

وكان أحد قادة المسلمين وهو «الشجاع الحبشي» قد أقسم أن لايذوق الطعام إلا إذا هجم على فيل داهر، وكان قائد الفيلة، وهو فيل ضخم أبيض اللون، فربط الحبشي عيني فرسه حتى لايهيج من الفيلة وهجم على الفيل الأبيض وجرحه، فهاج وتأثرت بذلك بقية الفيلة وأخذت تصيح وتميل شمالا ويمينًا وأحدثت خللا في توازن

الجيش، ولكن داهر استطاع أن يرمي الحَبَشي بسهم قاتل فوقع شهيدًا رحمه الله تعالى[1].

وهكذا قام هذا الفدائي المسلم بعمل يقربه من الله تعالى وأقدم على عمل يرجو فيه الشهادة والإثخان في العدو ونصْر المسلمين فتحقق له ماأراد.

وهذا من النماذج الكثيرة التي لا تتوافر لدى غير المسلمين إلا بنسبة قليلة وبدافع من تعويض مادي كبير أو منصب رفيع يرجو فيه صاحبه أن يُحظَى بالنجاة ليتمتع بذلك العوض، وهذا الرجاء يُضعف من مقدرة الفدائي وإقدامه كثيرًا لأن الهمَّ الكبير الذي يستولي عليه هو أن يدافع عن نفسه حتى يظفر بالحياة التي علَّق عليها الآمال السعيدة، بينما يندفع المسلم بكل طاقته في الهجوم لعله يظفر بالشهادة ليُحظَى بالحياة السعيدة في الآخرة، حيث يعلق عليها كل آماله السعيدة، وفرق كبير بين من يقاتل ليُقْتَل وبين من يقاتل ليبقَى على قيد الحياة.

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ١٩٢ – ١٩٤، فتوح البلدان / ٦١٥.

وهكذا كانت جيوش المسلمين في ذلك العصر الذهبي إلى جانب كونها تضم القادة الأكفاء الذين يقدِّرون الكفاءات ويستشيرون أهل الرأي ويعيشون قضيتهم بكل أحاسيسهم فإنها كانت تضم الجنود المخلصين الذين جعلوا قضيتهم الكبرى هي نصر الإسلام والمسلمين وإغاظة الأعداء ودحر الجبابرة والظالمين.

وفي أثناء القتال توجهت طائفة من قواد السند وجنودهم نحو محمد بن القاسم طالبين الأمان فأعطاهم الأمان وأعلنوا إسلامهم أمامه، وكانت هذه أول مجموعة كبيرة من أتباع الديانة البرهمية من قواد الملك داهر وجنوده تدخل الإسلام برغبتها في أيام الفتوحات، وقد عرض هؤلاء القواد والجند على محمد بن القاسم خطة عسكرية ليثبتوا صحة إيمانهم وولائهم، بأن يأذن لهم أن يقوموا بمهاجمة مؤخرة جيش داهر على غفلة على أن يقوم الجيش الإسلامي في الوقت نفسه بهجوم شامل من الأمام، ووافق محمد بن القاسم على الخطة، وجعل مروان بن أشحم اليمني وتميم بن زيد القيسي عليهم، فَفَاجأُوْا العدو بالهجوم الخاطف العنيف من الخلف، وكذلك من الأمام، فأذهلوهم

بذلك وقُتل كثير من جيشهم فهاجوا وحميت المعركة [1].

وهذا مثل من أمثلة كثيرة تدل على عزة المسلمين وقوة تأثيرهم على أعدائهم، فإن هؤلاء انفصلوا عن جيش قومهم، ولم يكتفوا بمجرد الانضمام إلى جيش المسلمين بل أعلنوا إسلامهم وبرهنوا على صحة عقيدتهم بالخطة الحربية الرائعة التي اقترحوها على قائد المسلمين، وهذا دليل واضح على أن الدافع لهم كان إعجابهم بالإسلام وصدق توجههم نحوه، إذ لو كان الدافع مجرد عداء بينهم وبين قومهم لاكتفوا باللجوء إلى جيش المسلمين أو إعلان الانضمام إليهم في القتال ولم يتخطوا ذلك إلى التخلي عن دينهم والدخول في دين الإسلام.

وكان من آثار ثبات المسلمين الرائع وماقام به بعضهم من مواقف فدائية، وماتم من إسلام بعض أهل السند وانضمامهم إلى جيش المسلمين.. كان من آثار ذلك أن جيش السند أَخَذَتْهم الحمية

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ١٩٣ – ١٩٤، فتوح البلدان /٦١٥.

فشدَّدوا هجومهم على المسلمين من كل جانب، وحملوا حملة جماعية في محاولة مستميتة لكسب نهاية المعركة، وكان لتلك الحملة المركزة أثر في اضطراب جيش المسلمين بعض الوقت، فلما رأى ذلك قائد المسلمين محمد بن القاسم الثقفي نادى أبطال المسلمين وقادتهم بأسمائهم حتى اجتمعوا ثم علت أصواتهم بالتكبير حتى ملأت الآفاق وكانت على الأعداء كالصواعق المرسلة ففزع الجيش السندي وتحيروا، وحمل عليهم المسلمون حملة صادقة حتى قتلوا عددًا كبيرًا من جنود العدو وقادتهم وبعض الفيلة حتى لم يبق مع داهر من فرسانه من أبناء الأمراء والقادة الكبار إلا ألفًا من خمسة آلاف، وهو دليل على قوة إثخان المسلمين بجيش عدوهم.

وفي الوقت الذي اشتدت فيه حملة المسلمين أمر ابن القاسم رماة المنجنيقات بأن يصَوِّبوا سهام النار المشتعلة بالنفط نحو هودج فيل داهر، فأصيب الهودج بالحريق، وعطش الفيل من الحرارة فاتَّجه به داهر نحو النهر ليسقيه وليطفئ النار، وكان حوله بعض القادة لحمايته، فطاردهم المسلمون وأمطروهم بوابل من السهام ثم اشتبكوا معهم في قتال شديد، ونزل داهر من فيله وقاتل حتى قتله عمرو بن

خالد الكلابي، وأسرع بعض قادة السند فأخفوا جثته في خليج راور، ثم توقف القتال عند المساء بانتصار حاسم للمسلمين[1].

فتح مدينة راور:

بعد انتهاء المعركة الفاصلة مع جيش السند ومقتل ملكهم داهر توجه المسلمون بقيادة محمد بن القاسم لفتح مدينة راور التي جرت حولها تلك المعركة الحاسمة، وقد دخلها المسلمون إلا أن قلعتها بقيت محصنة بفرقة كبيرة من الجيش السندي وعلى رأسها الأمير جيسيه ولي العهد، وقد قرر جيسيه مواصلة القتال، لكنه أخيرًا قبل مشورة وزيره سياكر ومحمد العلافي بترك القلعة والسير إلى مدينة برهمناباد لقوة تحصينها، وقررت زوجة الملك داهر «بائي» البقاء في القلعة مع النساء وفرقة من القادة والجيش للدفاع عنها.

وقد توجه محمد بن القاسم إلى القلعة فرفض أهلها التسليم، فأمر بضربها بالمنجنيقات، وقسم جيشه قسمين: قسم يقاتل بالنهار

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ١٩٤-١٩٦، وانظر البداية والنهاية باختصار ٩/ ٩٢.

بالسهام والرماح، وقسم يقاتل بالليل بالقذائف الحجرية والنارية من المنجنيقات حتى هدمت الأبراج.

ولما رأت الملكة «بائي» أن المسلمين كادوا يفتحون القلعة جمعت الأميرات وأحرقن أنفسهن بالنار ليلحقن بأزواجهن تطبيقا للتقاليد الدينية السائدة بتلك البلاد.

وتم فتح القلعة ودخلها محمد بن القاسم وكان بها ستة آلاف جندي فأمر بقتلهم لرفضهم الاستسلام [1].

وفي هذا الخبر مثل من تأثير العقائد الجاهلية على أصحابها بالهلاك والخسران في الدنيا والآخرة، فهؤلاء النسوة اللاتي أحرقن أنفسهن قد تعجلن عذاب النار في الدنيا، ولو كان في اعتقادهن أنهن إن فعلن ذلك سيخلدن في الآخرة في نار جهنم وأنهن لو دخلن في الإسلام سيخلدن في جنات النعيم وينجون من عذاب النار لسارعن إلى الدخول في الإسلام.

فالعقل الرشيد السليم يهدي صاحبه إلى سعادة الدنيا والآخرة،

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ١/ ١٩٦، فتوح البلدان ٦١٦.

فالذين دخلوا في الإسلام على يد ابن القاسم أصبحوا أمراء وقادة في بلادهم، وهذا من سعادة الدنيا، مع ماينتظرون من السعادة العظمى في الآخرة.

أما الذين وقفوا ضد دعوة الحق وحاربوا دعاته فقد باؤوا بالخسران والهلاك بأنواع القتل في الدنيا وسيبوؤون في الآخرة بالخلود في نار جهنم.

فتح بهرور ودهليلة[1] :

تحرك محمد بن القاسم من راور متوجها إلى برهمناباد التي تحصن بها جيسيه، وكان عليه أن يفتح مدينتين محصنتين في طريقه إلى برهمناباد وهما بهرور ودهليلة.

فقد توجه أولا إلى مدينة بهرور وهي على بعد فرسخ من برهمناباد وفيها نحو خمسة عشر ألف جندي، فحاصرها وقاومه أهلها أياما فرماها المسلمون بالقذائف الحجرية والنارية من المنجنيقات

(١) وهما بلدتان تقعان شمال مدينة حيدر آباد الباكستانية- تاريخ المسلمين وحضارتهم في بلادا لهند والسند / ٨٥- .

حتى هدمت جدرانها وأبوابها وقتل معظم من فيها فدخلها محمد بن القاسم، وولى عليها حاكما من المسلمين.

ثم سار إلى مدينة دهليلة وكان بها نحو ستة عشر ألف جندي فحارب أهلها بشدة حتى هرب حاكمها الأمير ديوراج وهو ابن عم داهر ومعه بعض سكانها في الليل نحو بلاد الهند، فاستولى عليها المسلمون، وولى عليها ابن القاسم نوبة بن هارون كما فوض إليه الإشراف على حركة السفن في تلك المنطقة [(١)].

انضمام الوزير سياكر إلى المسلمين:

قبل فتح برهمناباد كان محمد بن القاسم قد بعث برسائل إلى الأمراء والوزراء يدعوهم فيها إلى الإسلام أو الطاعة مع ضمان الأمان لمن أجاب إلى ذلك، فلما علم بذلك «سياكر» وزير الملك داهر بعث رجلا إلى محمد بن القاسم وطلب منه الأمان، فأعطاه ذلك، وحضر الوزير إليه ومعه بقية النسوة المسلمات اللاتي كن قد استغثن بالحجاج، فاستقبله محمد بن القاسم بكل تكريم وأهدى إليه هدايا ثمينة، وفوض إليه مهمة الوزارة وصار يستشيره في أمور الدولة

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ١/ ٢٠٠ – ٢٠١.

والمهمات الحربية [1].

هذا وإن ماحدث من انضمام هذا الوزير إلى جيش المسلمين مع رفعة منزلته في دولته وماحدث من انضمام بعض أمراء السند كما تقدم يدلنا على أهمية مكارم الأخلاق في سياسة الأمم، فقد كان محمد بن القاسم يتصف بالحكمة والعدالة وتقدير وجهاء البلاد، وإنزال الناس منازلهم، ولقد كان لهذه الأخلاق الكريمة أثر في اجتذاب زعماء السند إلى الإسلام، ولاينبغي لنا مع ذلك أن نغفل جانب القوة فإن ظهور قوة المسلمين يجعل زعماء البلاد يخضعون لعزتهم ويتيح الفرصة لعقولهم كي تفكر تفكيرًا سليما في مستقبل أمرهم وأمر بلادهم، وإذا كان هؤلاء الزعماء يرون أن قائد أعدائهم قد قرَّب ساسة بلادهم الذين دخلوا معه وأسند إليهم المناصب المهمة فإن هؤلاء الزعماء لن يفقدوا بإسلامهم مناصبهم التي هي العائق الكبير بينهم وبين الإسلام، والتي من أجلها يحملون جنودهم على حروب لايعلمون ماهو مصيرها.

---

(١) المرجع السابق / ٢٠١ – ٢٠٢.

فتح إقليم برهمناباد:

تولى الأمر بعد داهر ابنه جيسِيه وهو رجل سياسي شجاع ولذلك اهتم ابن القاسم بالقضاء عليه حتى لايعود إلى حكم بلاد السند وقد كان جيسيه أخذ بمشورة مستشاريه فانتقل إلى بلدة برهمناباد لوجود حصن منيع فيها فتحصن به وجمع إليه قواته من أنحاء السند،وكان معه في ذلك التجمع ستة عشر ألف قائد ومعهم عشرات الآلاف من الجنود.

وقد استفاد قادة السند من تجاربهم مع المسلمين في الحرب فرأوا أنه ليس بإمكانهم مهما بلغ عددهم أن يقاوموا المسلمين في الصحراء وجها لوجه، فكان من تخطيطهم أن يتحصنوا بذلك الحصن المنيع وأن يُخرجوا فرقا كبيرة من الجيش لقتال المسلمين فإذا انهزموا لجَأُوْا إلى الحصن.

ولما علم بذلك ابن القاسم سار بجيشه حتى وصل قرب تلك المدينة، وأرسل رسولا إلى الأمير جيسِيه وأهالي برهمناباد يدعوهم إلى الإسلام أو الاستسلام مع دفع الجزية وإلا فإنه سيقاتلهم بشدة،

فرفض جيسيه ذلك وقرر الحرب،وعندئذ أمر محمد بن القاسم بحفر الخنادق، ووزع الجيش إلى فرق ووحدات استعدادًا للقتال.

ثم بدأت المعارك فكانت تخرج فرقة كبيرة من الجيش السندي مكونة من أربعين ألف جندي فيواجهها الجيش الإسلامي.

ثم تعود منهزمة عند المساء إلى المدينة فتتحصن بها، واستمرت المعارك على هذه الطريقة لمدة شهرين، ثم توقف القتال بين الطرفين لأن جيش السند قرر التحصن داخل المدينة.

ولقد ساءت حال الجيش الإسلامي لطول مدة الحصار وقلة الموارد الغذائية، فأرسل ابن القاسم إلى الأمير موكه بن بسايه حاكم منطقة بَتّ يستشيره في الأمر فأجاب بضرورة طلب قوات أخرى حتى يضطر الأمير جيسيه إلى الجلاء عن تلك المنطقة.

وقد أخذ ابن القاسم بهذا الرأي فكتب إلى نوابه من الأمراء المسلمين على المناطق المفتوحة لِيَمُدُّوْا الجيش الإسلامي بالعدد الكافي من الجنود،ووفد عليه أولئك الأمراء وعلى رأسهم حاكم منطقة بتّ، فلما رأى الأمير جيسيه الجيوش قادمةً لإمداد الجيش الإسلامي أصابه

الرعب وانسحب من تلك المدينة بأسرته وذهب إلى منطقة جيتور على الحدود الهندية،بينما افترق عنه محمد العلافي العربي المتمرد على دولة الإسلام الذي سبق ذكره هو ومن معه من العرب فاتجهوا نحو بلاد كشمير[1].

وهكذا شتت الله تعالى شمل الأعداء حيث أوقع في قلوبهم الرعب وخالف بين آرائهم.

ومن المواقف التي نلاحظها في هذه المعارك مقدرة المسلمين الفائقة على الصبر على الشدائد ومصابرة الأعداء على الرغم من كون الأعداء متحصنين في بلادهم المنيعة.

ومن تلك المواقف مقدرة محمد بن القاسم العالية في كسب القلوب واكتساب الأنصار من غير المسلمين وعدم الاعتداد بالرأي حيث استشار حاكم منطقة بتّ السندي وأخذ برأيه فكان ذلك سببًا

---

(١) وتقع كشمير شمال مقاطعة البنجاب في الهند وباكستان وليس المقصود كشمير التي وقع فيها النزاع بين الهند وباكستان- تعريف مدن الهند الواردة في كتاب فتوح البلدان/ ص ١٤٥ لسيد رضوان علي .

في جلاء أعدائه وتفرقهم، وقد كان ماشتهر به ابن القاسم من العدل والحكمة ودماثة الخلق سببًا مباشرًا لذلك الولاء الذي تم بينه وبين حكام السند الذين خضعوا لحكم الإسلام.

وبعد خروج جيسيه من مدينة برهمناباد تم فتحها وإخضاعها لحكم المسلمين وقام ابن القاسم بتنظيم أمورها بما يتفق مع حكم الإسلام،وكان رحيما عادلا مع الأهالي الذين لايحملون السلاح ضد المسلمين.

وبعد أن تم فتح هذه المدينة المحصنة بقي محمد بن القاسم فترة من الزمن يقوم بتنظيم أمور البلاد الإدارية فعين حكاما من المسلمين العرب على مناطق السند وكان اختياره لأولئك الأمراء مبنيًّا على كفاءتهم الإدارية والحربية مع النظر إلى احتياج البلاد لتلك الكفاءات حسب تنوعها، ولذلك كان ينقل بعض الأمراء إلى مناطق يرى أنها أحوج إليهم من مناطقهم الأولى[1].

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ٢٠٢ – ٢٠٥، فتوح البلدان للبلاذري / ٦١٦، الكامل لابن الأثير٤/ ١١٢.

ولاشك أن توافر الرجال الأكفاء مع ابن القاسم كان له الأثر الكبير في نجاحه في أعماله الحربية، وأعماله الإدارية إلى جانب ماتحلى به هذا القائد من الحكمة ورجاحة العقل وحسن التدبير فاستطاع بهذه الأخلاق العالية أن يوجه طاقات الرجال الأكفاء معه بتعيين الرجل المناسب في المكان المناسب.

احتواء القبائل المتوحشة:

ولما انتهى محمد بن القاسم من تنظيم أمور البلاد الإدارية تفرغ للتفكير في القبائل المتوحشة مثل قبيلة الزط التي انصرف أفرادها للأعمال اللصوصية حيث كانوا يخيفون الآمنين ويقطعون السبل فاستشار في أمرهم كلاً من الوزير السندي سياكر وموكه حاكم منطقة بتّ فذكرا له أن هذه القبائل لايمكن أن تخضع إلا بالقوة وأن حكام السند كانوا يعاملونهم بالقسوة والإذلال وكانوا يلزمونهم بلباس معين حتى يحذر الناس منهم، وكانوا إذا قبضوا على أحدهم متلبسا بالسرقة حكموا عليه وعلى جميع أفراد أسرته بالحرق.

ولما سمع ذلك منهم ابن القاسم أخذ تلك القبائل مؤقتًا بالحزم،

وأمَّر عليهم أفضل قادته وهو خريم بن عمرو المدني المعروف بالتقوى والشجاعة والسياسة، ثم بدأ يضم أفراد هذه القبائل مع الجيوش الإسلامية، فلما رأوا كرم الوفادة وحسن المعاملة ارتفع مستواهم الفكري ودخل كثير منهم في الإسلام وتحسنت أخلاق من بقي منهم، ولم يبق على الطباع الشرسة والوحشية إلا الذين اعتصموا بمناطقهم ولم يختلطوا مع المسلمين [(١)].

وهذا موقف يذكر لمحمد بن القاسم وقادته العظماء وعلى رأسهم خريم بن عمرو المدني الذي أوصى الحجاج محمد بن القاسم بأن يلازمه دائمًا لفضله ودهائه وشجاعته، حيث تحوَّل كثير من أفراد هذه القبائل المتوحشة إلى أعلى المستويات الحضارية، فدخل أكثرهم في الإسلام، ومن لم يدخلوا فيه تأثروا بأخلاق المسلمين ومعاملتهم الكريمة ونبذوا ماكانوا ألفوه من العادات الرذيلة.

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ٢٠٢ – ٢٠٨.

فتح مدينة أرور[1] :

بعد أن قام محمد بن القاسم الثقفي بفتح برهمناباد الحصينة وبعد أن أخضع القبائل السندية المتمردة كتب إلى الحجاج بن يوسف بذلك فأمره بالتوجه نحو عاصـمة السند أرور ثم إلى مدينة الملتان لأنهما من أقوى القواعد الحربية في البلاد وهما مقر عظماء السند.

وقد توجه ابن القاسم بجيشه نحو العاصمة في محرم من عام أربعة وتسعين للهجرة وفي طريقه إليها فتح مدينة منهل وهراور وبسمد وساوندري وقد صالح أهل هذه المدن وأسلم بعض أهلها.

ووصل ابن القاسم بجيشه إلى العاصمة أرور وعسكر على بعد ميل من قلعتها المحصنة، وكان أميرها قوفي بن داهر قد حصنها تحصينًا قويًّا وشجع قواده وجنده على الحرب.

وقد بدأت الحرب واستمرت أيامًا إلا أن ابن القاسم اختصر الطريق على المسلمين،وذلك أن المسلمين لما فتحوا مدينة برهمناباد

---

(١) كانت عاصمة بلاد السند ، وهي الآن مدينة باكستانية تقع على نهر السند في وسط باكستان – تاريخ المسلمين وحضارتهم في بلاد الهند والسند / ١٥ – .

وقعت الأميرة «لادي» إحدى زوجات الملك داهر في الأسر فأكرمها المسلمون،فلما كان حصار مدينة أرور العاصمة أرسلها ابن القاسم مع رجال من السند إلى باب المدينة فاجتمع بها بعض زعمائها فأخبرتهم بأنها أرملة داهر وأن الملك قد قتل مع قواده المشاهير، والباقون استسلموا،وأشارت عليهم بأن يستسلموا للعرب وأن يصالحوهم.

فلما سمع أهل تلك المدينة بمقتل ملكهم وبما يتصف به المسلمون بقيادة ابن القاسم من العدل والتسامح والقوة قرروا قبول الصلح، ولما علم بذلك الأمير قوفي قرر الفرار مع أسرته ليلا إلى مدينة جيبور على الحدود الهندية ليبقى مع أخويه جيسيه ودكيه .

وفتح أهل أرور الأبواب ودخلها ابن القاسم صلحا، وهكذا نجحت سياسة ابن القاسم في محاولة تأليف قلوب زعماء السند حيث استفاد منهم كثيرًا في إقناع قومهم بالصلح وتجنب القتال كما استفاد من خبرتهم الحربية حيث كان يستشير بعضهم في أموره المهمة.

هذا وقد بقي ابن القاسم بعض الوقت ينظم أمور عاصمة السند

الإدارية، وقد عين «رواح بن أسد» حاكمًا عليها وعين على شؤون القضاء موسى بن يعقوب بن طائي الثقفي وبنى فيها مسجدًا جامعًا، وقد كان تجاوب أهلها سريعًا مع الإسلام حيث أسلم بعض سكانها آنذاك [1].

فتح مدينة «باتيه»:

بعد ذلك اتجه محمد بن القاسم لمدينة «باتيه» وكان حاكمها «ككسه» ابن عم الملك داهر، وقد اشترك معه في المعركة الأخيرة، ثم عاد إلى «باتيه» ولما علم بقدوم محمد بن القاسم أرسل إليه مندوبه واستقبله بالهدايا والضمانات والرهائن وعرض الصلح معه، فقبل محمد بن القاسم ذلك منه، وكان ككسه حكيمًا فاتخذه محمد بن القاسم مستشارًا له كما فوض إليه الأمور المالية في بلاده، وقدمه على جميع قادة السند الذين كانوا معه، وقد أخلص هذا الأمير للمسلمين ثم دخل في الإسلام على يد محمد بن القاسم، وكان بينهما ثقة كبيرة

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب١/ ٢١١-٢١٣،فتوح البلدان/ ٦١٧، الكامل في التاريخ ٤/ ١١٢.

وانتفع المسلمون به في حروب السند الأخيرة [(١)].

وهكذا مازلنا نجد أمثلة حية لهذه الظاهرة التي تميزت بها فتوح بلاد السند حيث أقدم على الإسلام عدد من زعمائها وأهلها وبقي عدد من زعمائها مخلصين للمسلمين حتى مع بقائهم على دينهم.

وهذا شاهد واضح على أن سلاح القوة الذي ظهر به المسلمون ماهو إلا مفتاح يَلِجُون منه بلاد الكفر والضلال، أما مفاتيح القلوب فقد كانت بالخشوع المهيب بين يدي الله عز وجل الذي كان يظهره المسلمون في الصلاة وخاصة صلاة الجماعة، وفي الأخلاق العالية والمعاملة الكريمة التي كان المسلمون يتحلون بها حتى مع أعدائهم، فبينما نجد الأعداء يتمنون أن يقع المسلمون بين أيديهم ليحرقوهم، إذا بهم يقفون أمامهم مشدوهين حيارى قد أُخِذت قلوبهم مما يرون من سمو المسلمين وعظمتهم سواء في علاقتهم مع ربهم أو مع الناس، ثم لايلبثون طويلا حتى يُعلنوا انتماءهم للإسلام الذي لامَسَ شغاف قلوبهم ووافق فطرتهم وأجاب على اسئلتهم المحيرة التي

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ٢١٣.

كانت قبل ذلك تصطدم بِجُدر الوثنية المصمتة التي لاتحِير جوابا ولا تحل إشكالا.

فتح مدينة «اسكلنده»:

ثم اتجه ابن القاسم إلى مدينة «اسكلنده» وهو في طريقه إلى الملتان في إقليم البنجاب، واصطحب معه الأمير السندي «ككسه» وكانت مدينة اسكلنده محصنة للغاية وأهلها قد استعدوا للحرب، فخرج أهلها لقتال المسلمين، فوجه إليهم ابن القاسم الجيش بقيادة زائدة بن عميرة الطائي ومعه الأمير ككسه، واشتدت المعركة بين الطرفين إلى أن انهزم أهل اسكلنده وتحصنوا بقلعتهم فلجأ المسلمون إلى سلاحهم الثقيل حيث قذفوا القلعة بأحجار المجانيق والسهام المشتعلة لمدة أسبوع، حتى نقصت الغلة في جيش السند وهرب حاكم المدينة إلى حصن «سكه» بقرب الملتان، فدخل محمد بن القاسم المدينة ودارت معركة داخلها فقُتل كثير من جنود السند ووقع آخرون أسرى، وأعطى ابن القاسم الأمان لعامة الناس، ثم ولَّى على المدينة عقبة بن مسلمة التميمي [(١)].

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ٢١٤.

فتح قلعة سكه:

ثم اتجه الجيش الإسلامي بقيادة محمد بن القاسم إلى قلعة «سكه» وهي قلعة حربية ليس فيها إلا الجنود ويحكمها الأمير «بجهرا» وقد وقعت فيها بين المسلمين والسند معارك دامية استمرت سبعة عشر يوما، واستشهد فيها عشرون قائدا من قادة المسلمين وخمسة عشر ومائتان من جيش المسلمين،وقد حزن ابن القاسم حزنًا شديدًا على أولئك الشهداء وخاصة القادة فأقسم أن يهدم تلك القلعة، وقد هرب أميرها بجهرا إلى الملتان، فاستولى محمد بن القاسم على القلعة وأمر بهدمها وقتل من بقي فيها من الجنود [(١)].

وهذا مثل يصور لنا المعاناة الشديدة التي واجهها المسلمون الأوائل وهم يفتحون تلك البلاد المنيعة،والضحايا التي قدموها في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى ونشر الإسلام في الأرض،فعلى أشلاء أولئك الشهداء في أنحاء المعمورة،وبدمائهم الزكية التي روَّوا بها أرضها قامت بعد ذلك البلاد الإسلامية التي لايزال أهلها أو أكثرهم يعبدون الله تعالى.

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ٢١٤، فتوح البلدان / ٦١٧.

فهل يتذكر الخلف المعاصرون ماقام به أسلافهم الأماجد من الجهود الجبارة في تحويل تلك الممالك الوثنية إلى أوطان إسلامية تخفق فوقها راية التوحيد، فيحافظوا على وجود الإسلام القوي فيها؟

لعلهم يتذكرون، ولعلهم بعد ذلك يفعلون.

فتح مدينة الملتان:

زحف محمد بن القاسم الثقفي بالجيش الإسلامي نحو مدينة الملتان عاصمة إقليم البنجاب، والتقوا بجيش السند بقيادة الأمير «كندا» حاكم الملتان ومعه الأمير بجهرا حاكم قلعة سكه الذي فرَّ منها واستمر القتال بعنف لمدة يومين سقط فيها كثير من القتلى، ثم استخدم المسلمون سلاحهم الثقيل حيث رموا تلك المدينة بالمجانيق لمدة شهرين على فترات متقطعة، ونفدت المواد الغذائية [1].

يقول البلاذري: فأبلى زائدة بن عمير الطائي وانهزم المشركون فدخلوا المدينة، وحصرهم محمد، ونفدت أزواد المسلمين فأكلوا الحُمُر، ثم أتاهم رجل مستأمن فدلَّهم على مدخل الماء الذي منه

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ٢١٥.

شربهم وهو ماء يجري من نهر بسمد فيصير في مجمتع له مثل البركة في المدينة وهم يسمونه البلاح، فغوَّره، فلما عطشوا نزلوا على الحكم، فقتل محمد المقاتلة، وسبَى الذرية وسبَى سدنة البُدّ - يعني الصنم - وهم ستة آلاف [1].

وهكذا كان بلاء المسلمين عظيمًا وانتصاراتهم متوالية في كل معركة يخوضونها مع الأعداء، ولم يكن يحدُّ من قوتهم واندفاعهم إلا الأسوار الضخمة والحصون المنيعة، وهذه قد استخدموا لها المجانيق ونحوها، ولكن قد تكون هناك بعض العوائق تحول دون وصول هذا النوع من السلاح كما هو الحال في مثل هذا البلدة وبلدة برهمناباد وهما من أعظم تلك البلاد تحصينا.

ولقد قيض الله للمسلمين في حصارهم للملتان هذا الرجل الذي دلَّهم على عورة بلاده حيث يتسرب إليهم ماء الشرب عبر مسارب خفية، فكان قطع ذلك الماء وسيلة ناجعة إلى إلجاء أهل ذلك البلد على النزول على حكم المسلمين.

---

(١) فتوح البلدان / ٦١٧.

ولربما كان من المناسب أن نعود إلى تحليل هذه الظاهرة العجيبة حتى لا يظن بعض الناس أن هؤلاء الذين قدموا الخدمات الجليلة للمسلمين ليسوا إلا أناسا نفعيين يسعون لتأمين مصالحهم الخاصة، والحقيقة أن هذه الظاهرة ناتجة عن إعجاب أولئك القوم بالإسلام وميلهم إلى المسلمين ومايرجونه من الخلاص على أيديهم من قهر الولاة وظلمهم لما اشتهر به المسلمون آنذاك من العدل والرحمة والمواساة، ومما يدل على ذلك استمرار المشهورين من هؤلاء على الولاء للمسلمين ودخول كثير منهم في الإسلام.

وبعد فتح الملتان جاء الخبر بوفاة الحجاج بن يوسف فرجع محمد ابن القاسم إلى عاصمة السند «أرور» وتلقى تعازي الناس حيث كان الحجاج ابن عمه ووالد زوجته.

فتح إقليم الكيرج[1] :

بعد فترة من الراحة خرج محمد بن القاسم بالجيش إلى إقليم

(١) الكيرج عاصمة إقليم كجرات، وهي تقع في غرب الهند بالقرب من مدينة أحمد أباد- تعريف مدن الهند وتحديدها في كتاب «فتوح البلدان ص١٤١/ لسيد رضوان علي .

الكيرج على حدود الهند حيث لجأ إليها الأمير جيسيه الذي كان ابن القاسم يعدُّ بقاءه خطرًا على مستقبل المسلمين في السند، وجرت هناك معارك حامية بين المسلمين وأهل كيرج قُتل فيها حاكمها دوهر وفي ذلك يقول الشاعر:

نحـن قـتلنا داهرًا ودوهرا والخيل تـردي منسرا فمنسرا

وسقطت المدينة بيد المسلمين [1].

نهاية محمد بن القاسم :

اتجه ابن القاسم إلى مدينة قنوج التي رفض حاكمها قبول الإسلام والاستسلام[2].

ولما كاد ابن القاسم أن يصل إلى قنوج جاء الأمر من الخليفة سليمان بن عبد الملك بعزله والقدوم إلى العراق وذلك في عام ٩٥هـ، حيث توفي الوليد بن عبد الملك وخلفه سليمان بن عبد الملك الذي قام

---

(١) فتوح البلدان / ٦١٨، موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ٢١٩.

(٢) مدينة قنَّوج كانت عاصمة بلاد الهند ، بينها وبين دلهي مسيرة عشرة أيام – معجم الأمكنة التي لها ذكر في نزهة الخواطر/ ص ٤١ .

بعزل جميع الولاة الذين أيدوا الوليد في سعيه لنقل الخلافة من سليمان إلى عبد العزيز بن الوليد، وحيث لم يتم ذلك وآل الأمر إلى سليمان فقد أقدم على عزل أولئك الولاة من غير نظر إلى مايترتب على ذلك من ضرر على المسلمين وعلى دعوة الإسلام.

وبعزل محمد بن القاسم توقف الجهاد في بلاد السند بل إن بعض مناطقها قد انتقضت بعد ذلك على حكم المسلمين.

ومما زاد الأمر سوءًا بالنسبة لابن القاسم أن سليمان بن عبد الملك ولَّى على العراق صالح بن عبد الرحمن وكان بينه وبين الحجاج عداء قديم حيث كان الحجاج قد قتل أخاه آدم بن عبد الرحمن لكونه يرى رأي الخوارج، فانتقم صالح من أقارب الحجاج الذين منهم محمد بن القاسم، فقد ولَّى صالح بن عبد الرحمن على السند يزيد ابن أبي كبشة وأمره بأن يقيد محمد بن القاسم وأن يرسله إلى العراق، ففعل ذلك واستسلم ابن القاسم طاعة لأولي الأمر على الرغم من شعبيته الكبيرة في بلاد السند وكثرة جنوده حيث بلغ عددهم خمسين ألفًا من العرب والسند.

وحُمِل ابن القاسم إلى العراق مقيدا وأدخله صالح بن عبد الرحمن في سجن واسط[1]، ولقد كان تأثره من تلك المعاملة القاسية شديدًا وحزنه بالغًا حيث قال في ذلك:

فَـلئِنْ ثـويت بواسط وبأرضهـا   رَهْـنَ الحديد مكبَّلا مغلـــولا

فَلَربَّ قـيـنة فارس قد رُعـتُـها   ولرب قِرنٍ قَدْ تركـــت قتيلا

وقال أيضًا:

لو كنت أجمعت الفرار لوُطِّـئت   إنـــاث أُعدَّت للوغى وذكور

ومادخلتْ خيل السكاسك أرضنا   ولاكـــان من عـكٍّ عليّ أمير

ولاكـنـت للعبد المـزونـي تابعا   فيالك دهـــر بالكـرام عـثور

وقد عذبه صالح في رجال من آل أبي عقيل الثقفيين حتى قتلهم وذلك في عام ٩٦هـ[2].

وهكذا قُتِل هذا الشاب على يد هذا الوالي الظالم الذي أخذ

(١) واسط مدينة في العراق بين البصرة والكوفة – معجم المصطلحات التاريخية ص ٢٢٤/ لعبد العزيز آل سعد .

(٢) فتوح البلدان / ٦١٨ – ٦١٩.

بجريرة الحجاج كل من ينتسبون إلى جده أبي عقيل على عادات الجاهلية.

وأفَلَ هذا النجم الساطع الذي أضاء سماء بلاد السند بقوة وسرعة فائقة بعد أن قام بتلك الأعمال الجهادية العظيمة وأرسى قواعد الدولة الإسلامية في بلاد السند.

لقد كان محمد بن القاسم ناجحا في الأعمال الحربية والأعمال الإدارية فقد نجح في كل حروبه التي قادها ونجح في إدارته لتلك البلاد الواسعة التي حكمها و استقطب محبة وإعجاب قادة المسلمين الذين كانوا تحت إدارته وقادة السند الذين أعلنوا الولاء له طوعًا وقدموا له خدمات كبيرة في أعماله الجهادية والإدارية.

ولقد كان محمد بن القاسم بارعًا جدًّا في استمالة زعماء الكفار حيث كان يقدرهم ويلاطفهم ويُبقي على سيادتهم في أقوامهم..

وكان لهذه السياسة البارعة أثر كبير في ولاء عدد منهم لدولة الإسلام ودخول بعضهم مع أقوامهم في الدين الإسلامي.

ولقد بلغ من نتائج هذه السياسة الحكيمة أن استطاع محمد بن

القاسم أن يضم إلى جيشه أكثر من ثلاثين ألفا من جنود السند مع قادتهم حتى بلغ جيشه في آخر معركة خاضها خمسين ألفا.

وفي تقديري أنه لو استمر في القيادة مع دعم دولة الإسلام له لاستطاع أن يفتح جميع بلاد الهند ولخضع له ملوكها..ولكنْ قاتل الله السياسة الهوجاء واتِّباع الهوى وتغليب المصلحة الخاصة على مصلحة المسلمين العامة.

فلقد كان الهمُّ الكبير الذي يحمله سليمان بن عبد الملك أن ينتقم من ولاة أخيه الوليد الذين كان لهم معه مواقف غير مرضية من غير أن ينظر إلى مصلحة المسلمين العامة ومصلحة دولة الإسلام.

ولهذا الغرض اختار الولاة الذين يندفعون اندفاعا أهوج نحو تحقيق هذا الغرض،وكان ابن القاسم من ضحايا هذا الانحراف السياسي.بل كانت الدولة الإسلامية ومستقبل دعوة الإسلام من ضحايا ذلك.فرحم الله ابن القاسم وجزاه خيرًا على ماقدم للإسلام والمسلمين.



الجهاد في السند في عهد هشام بن عبد الملك

بعد أن توفي أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك في يوم السبت من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين للهجرة انتقلت الخلافة إلى أخيه أمير المؤمنين سليمان، ثم إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز،وذلك في يوم الجمعة لعشر مضين من صفر سنة تسع وتسعين للهجرة،ثم إلى أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك في يوم الأربعاء لليال بقين من شهر رمضان سنة إحدى ومائة للهجرة،ولم يكن في تلك العهود جهاد بارز في السند[١]،غير أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله كان له جهد واضح في دعوة زعماء الكفار إلى الدخول في الإسلام،وقد أجابه إلى ذلك بعضهم وولى بعض هؤلاء على بلادهم كما هو مذكور في بيان مواقفه.

وحينما آلت الخلافة إلى أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك بن مروان في أواخر شهر شعبان من سنة خمس ومائة للهجرة[٢]نشطت حركة الجهاد في السند بهدف تثبيت الأوضاع فيها وإخضاع بعض الولايات الهندية المجاورة التي كانت من عوامل عدم استقرار الأوضاع في السند.

---

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٤٩٥، ٥٥٠،٥٧٤.

(٢) المرجع السابق ٧/ ٢٥.

ولاية الجنيد بن عبد الرحمن المُرِّي:

في سنة سبع ومائة للهجرة تولى الجنيد بن عبد الرحمن المري بلاد السند، وهو رجل سياسي كبير وقائد بصير، وكانت السند قد عظمت بها الفتن والقلاقل وقلَّ بها الأمن، وعظم سلطان الأمير جيسيه الذي كان قد استولى على منطقة برهمناباد وأقره عليها أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز لما دخل في الإسلام.

ولما وصل الجنيد إلى بلاد السند قام بجولة في مناطقها فلما وصل إلى منطقة برهمناباد رفض جيسيه أن يسمح له بدخولها قائلا: إني قد أسلمت وولاني الرجل الصالح[1] بلادي، ولست آمنك، فأعطاه رهنا وأخذ منه رهنا بما على بلاده من الخراج، وخاف جيسيه من هجوم الجنيد عليه فاستعد له واستعان بحكام إقليم كجرات من بلاد الهند،وكان كل واحد من القائدين يراقب تحركات الآخر إلى أن وقعت بين الجيشين معركة انهزم فيها جيش جيسيه ووقع هو في الأسر فقتله الجنيد.

---

(١) يعني عُمَر بن عبد العزيز.

ثم قام الجنيد بعد ذلك بإخضاع مدينة الكيرج وكان محمد بن القاسم قد فتحها ثم انتقضت على دولة الإسلام وأراد حاكمها الاستقلال كما فعل جيسيه، فسار إليها الجنيد بجيشه وجرت بين الجيشين معركة دامية انهزم فيها حاكم الكيرج وتحصن بالمدينة، فأمر الجنيد بن عبد الرحمن باستخدام المنجنيقات بالقذائف النارية والحجرية فقذف المسلمون بها واستخدموا آلة حربية تسمى كباش وهي آلة من خشب وحديد يجرونها بنوع من الخيل فيدق بها الحائط فينهدم، فدكوا بها حائط المدينة حتى انثلم، فدخلوا المدينة وقاتلوا أهلها بشدة حتى هزموهم، وهرب حاكمها واستسلم أهلها.

ولما انتهى الجنيد من إخضاع منطقة السند جهز جيشا كبيرا لإخضاع مناطق الهند المجاورة التي كانت تمد المتمردين في السند، ففتح عددا من المدن منها مرمد ومندل ودهنج وبنجاسر عاصمة إقليم كجرات الشمالية.

وعلم الجنيد بأن الكجراتيين يعدون العدة لحربه في مدينة بروص (بهروج) فتوجه إلى هناك وحارب أهلها وفتح المدينة ثم توجه

نحو مدينة ماليه (مالوه) وفتحها كما فتح مدينة أرنين (أجين) ومدينة بهرمد [1].

وهكذا قام الجنيد بن عبد الرحمن المري بإخضاع بلاد السند وإقليم كجرات من بلاد الهند بنجاح وسرعة، وعادت الحياة إلى بلاد السند بالطمأنينة والأمن.

ولاية الحكم بن عوانة الكلبي:

لم يستمر الأمن والاستقرار في السند طويلا حيث تم نقل الجنيد ابن عبد الرحمن إلى ولاية خراسان لاحتياج الدولة الأموية له هناك، وذلك في سنة إحدى عشرة ومائة للهجرة، فتولى إمرة السند بعده تميم بن زيد العتبي ولم يكن في مثل كفاءة الجنيد فاضطربت أحوال البلاد وقامت الفتنة بين أهل السند والعرب وبين العرب أنفسهم، ولما أوشكت البلاد على نشوب حرب داخليه قرر تميم مغادرة البلاد إلى العراق، وقد مات في الطريق، وعلم والي العراق خالد بن عبد الله

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ١/ ٢٣٢ – ٢٣٨، فتوح البلدان للبلاذري / ٦٢٠ – ٦٢١، الكامل في التاريخ ٤/ ١٣٤.

القسري بذلك فولى على السند الحكم بن عوانة الكلبي سنة اثنتي عشرة ومائة للهجرة، وقدم الحكم إلى السند وهي في ذلك الوضع المضطرب فسار سيرة حسنة وأحيى الجهاد،وكان من عوامل نجاحه اختياره عمرو بن محمد ابن مسلم الثقفي نائبا عنه لأن عمرًا محبوب في السند لشهرة أبيه فاتح السند، وقد أسند إليه الحكم قيادة الجيش فتحرك عمرو بالجيش لإخماد الفتن فرجع من جولته منتصرا فاستقرت الأوضاع في السند ورضي أهلها بولاية الحكم.

ولقد بقي الحكم في إمارة السند حتى عام اثنين وعشرين ومائة للهجرة ، حيث خرج على رأس جيش لإخماد الفتن التي ثارت في بعض مناطق السند وفي صحبته عمرو بن محمد بن القاسم فاستشهد الحكم وانتصر جيشه على الأعداء [1].

ولاية عمرو بن محمد بن القاسم:

بعد استشهاد الحكم بن عوانة ولَّى والي العراق يوسف بن عمر

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ١/ ٢٣٨-٢٤٤، فتوح البلدان / ٦٦٢-٦٢٣، تاريخ خَلِيفة بن خياط/ ٣٥٤، الكامل في التاريخ / ١٣٥.

على السند عمرو بن محمد بن القاسم الثقفي، فكان من أعماله بناء مدينة المنصورة لتكون حصنا للمسلمين عند أي هجوم من الأعداء[1]، وقد أفاد ذلك حيث هجم أحد ملوك الهند المجاورين للسند على تلك المدينة لما أحسَّ بقلة جيش المسلمين المرابط فيها، فتحصن بها المسلمون لعدم مقدرتهم على قتال ذلك الجيش المهاجم، وطلب عمرو المدد من والي العراق فأمده بأربعة آلاف مقاتل، فقرر عمرو مهاجمة الجيش الهندي وجعل على مقدمته معن بن زائدة الشيباني، وهجموا ليلا على الجيش الهندي فانتصر المسلمون وقتل الكثير من الجيش الهندي، ووقع ملكهم في الأسر ولكن المسلمين لم يعرفوه، فانقذه جنوده ولاذوا جميعا بالفرار وتركوا وراءهم أموالهم والأسرى الذين أسرهم المسلمون [2].



(١) المنصورة مدينة باكستانية تقع على الجانب الشرقي لنهر السند، وتقع حاليًا شمال شرق مدينة حيدر آباد الباكستانية- معجم البلدان ٥/ ٢٤٤، تاريخ المسلمين في بلاد الهند/ لأبي النصر ص ١٣٦ .

(٢) تاريخ اليعقوبي ٢/ ٣٢٤.

المصادر والمراجع

- البداية والنهاية / للحافظ أبي الفداء ابن كثير .
- تاريخ خليفة بن خياط/ لأبي عمرو خليفة بن خياط الليثي.
- تاريخ الطبري/ للإمام محمد بن جرير الطبري .
- تاريخ اليعقوبي/ لأحمد بن يعقوب بن وهب .
- شذرات الذهب/ لعبد الحي بن أحمد(ابن العماد الحنبلي).
- فتوح البلدان / لأحمد بن يحيى البلاذري .
- الكامل في التاريخ / لأبي الحسن علي الشيباني (ابن الأثير).
- موسوعة التاريخ الإسلامي / للدكتور عبد الله الطرازي .

فهرس الموضوعات